من أجل مصر

البطل أحمد عصمت

بقلم
عبد الحليم الجندي



من أجل مصر

البطل أحمد عصمت

بقلم
عبد الحليم الجندي

للمؤلف . . .

« أبو حنيفة » . بطل الحرية والتسامح فى الإسلام .

« الهلباوى » . فى جرائم واغتيالات القرن العشرين .

« مارشال هول » . « هنرى روبير » . فى جرائم واغتيالات القرن العشرين .

مقدمة الطبعة الثانية

كان استقبال الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى الشهر الماضى متابعة من بنى الوطن لدراسات البطولة ، وحياة فى الذكريات ، مع التضحيات التى سلفت ، والبطولات التى ستجىء

فعلى بركات الله أيها الشجعان

الى مزيد من القوة

ومزيد من التضحية

فمصر تنتظر

سبتمبر ١٩٥٣

مقـدمة

بلغ الإنجليز أقصى الأرض من بضعة قرون . فرنت أبصار الاستعمار إلى مصر حيث تلتقى وتفترق خطط الدفاع عن الشرق . وتلاحقت محاولاتهم من عهد المماليك ومحمد على ، وضد الفرنسيين والمصريين ، ليكسفوا الشمس البازغة فى شرق البحر المتوسط . وأبى الله إلا أن يتم نوره ، فتسللوا يستبقون أسهم القناة ويؤلبون الدائنين على الخديوين . ولما ضل سعيهم أقبلت أساطيلهم ، جهاراً نهاراً ، تخترع الأعذار للاستعمار . فلما دحرتهم جيوش مصر فى غرب الدلتا شرّقوا يقتحمون القناة التى تحميها قواعد القانون الدولى ، وهرولوا يناوشون بعض الفيالق المصرية المبعثرة . ويخلفونها إلى قلب مصر فى القاهرة .

وفقدت مصر استقلالها فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكرثتها كارثة الاحتلال ، فانطبع كيانها بطابع الانتقاض على الاستعمار ، وكانت زلازلها جميعاً رجع الصدى لأحداثه .

ولم تكن الأعوام الثلاثون التالية للاحتلال هجعة شعب يؤوس زعزعته الخيانة ، بل كانت استجاعاً لقوى الأمة حتى تنهض « نهضة فاتحة القرن » فتؤتى طلائعها أثارها الدامية ، بعد إذ سكت قصف المدافع فى سنة ١٩١٩ .

وما كانت الأعوام الثلاثون الأخرى بعد ثورة سنة ١٩١٩ إلا محنة

الحياة السياسية التى سلطها الاحتلال على الشعب فلم ينثلم حده ولم يهن جلده ، بل عرف طريقه إلى « النهضة الثانية » فى ثورات ثلاث متعاقبة تقوم على وشيجة جامعة بينها ، حقيقة بتسميتها « نهضة منتصف القرن » .

أما الثورة الأولى فكانت ثورة دستورية عارمة فى « صناديق الانتخاب » ألقت فيها الأمة درساً على الملك لم يتعظ به، ولم تفد لنفسها منه ، مذ كان قد سيطر على الحكم خمس سنوات دامية بوزارات من الأقلية الشعبية أو المستقلين ، تستمد سلطانها فى الشعب من الملك ! ... وخيل اليه أن الإرهاب الذى يبسط به يده إلى الشعب قد أدخل فى ضميره الرعب ، حتى إذا جاء أجل الانتخابات العامة أعلن بكل لسان رغبته فى « برلمان متوازن » وأدرك الشعب أنه يريد لنفسه مجلساً كله أقليات ، ينحنى بين يديه ، ليحكمها ، ويحكم بها .

فما أن وقف الناخبون أمام « الصناديق » فى فاتحة عام ١٩٥٠ حتى دوت إرادتهم قاهرة لأهواء الملك ، مجلجلة « بالحركة الشعبية » التى ترتجيها البلاد ، فبوأوا مقاعد البرلمان نفس الأغلبية الشعبية التى كانت تقف له بالمرصاد ، وكان يفزع من ذكراها ... غير أن تلك الأغلبية الشعبية عجزت ـ وهى فى عنفوانها ـ عن أن تفرض عليه سلطان الأمة ! فبخعت الثورة الدستورية نفسها ، واستيأست الأمة من النظام بتمامه .

وثارت الثورة الثانية فى العام التالى ، يوم حملت الكتلة الشعبية الأغلبية البرلمانية على يدها كما يحمل الزورق التيار ، فألغيت المعاهدة .

ونهد الابطال للقتال فى شواطىء القنال ، يغسلون بدمائهم الطاهرة عنا عار الاستعمار ، ويسمعون العالم صوت مصر بلسان الحديد والنار ، ويستغفرون التاريخ لنا عن طول ما صبرنا . وأدرك الملأ أن ضمير الغيب قد أجن النصر لمصر ، وإذا بالبلاد تصاب من مأمنها ، بحريق فى القاهرة

أسلم مقاليدها للعدو ، كما أمكن حريق « الريشستاغ » ، « هتلر » من ألمانيا ، وأعيد آساد القتال من القنال ، وسيق الأحرار إلى المعتقلات ، وأمست مصر بين عشية وضحاها سجنا كبيراً تترامى أسواره الجهنمية عند حدودها الطبيعية ، وطويت صفحات البشرى ، ونشرت الصفحات الأخرى ... صفحات المفاوضات... والحرب الأهلية، ووزارات ست فى أشهر ستة ! أو ثمانين وزيراً ... تتهاوى دراكاً كالأنجم المنكدرة !

وتساءل المصريون : ألا أين نصر الله ؟

وكانت الثورة الثالثة هى الجواب الذى قد كان قدر ...

كانت صدى الثورتين السابقتين فى العامين المنصرمين ... فلما خرجت الثورة الأولى على قاعدتها ، وحرفت الثورة الثانية عن قبلتها ، كان لزاماً أن تكون ثورة الجيش بعد أشهر جماع الثورتين معاً ، فترى المستقبل فى ضوء الماضى ، وتعاجل العدو الداخلى فى وثبات خاطفة ، لتدير وجهها من بعد للعدو الخارجى .

فى هـــذه الثورات الثلاث تتراءى النهضة التى تجهزت مصر بجهازها منذ فاتحة القرن ، فلم تقدر عليها إلا فى منتصفه . وفيها تتبدى حقيقتان بارزتان :

أولاهما : أن العالم ــ حتى بعد ميثاق الأمم المتحدة ــ قد خلى بيننا وبين انجلترا . فجمعت جموعها لنا تستنزف دماءنا ، وتنبش قبورنا ، وتمزق أشلاءنا ، وتهدم قرانا على رؤوسنا ، أيام كانت أمم الحضارة الغربية تحتفى بأعياد الميلاد ... فتعلمنا من صروف الزمان أنه لن تحمينا المعاهدات التى نكون طرفاً فيها ، أو التى لا نكون فيها طرفاً ، وإنما تحمى مصرنا صدورنا ... وتعلمنا أن السيف محور الكرة الدوارة بنا ــ فمن أمسك سيف القوة بيده أمسك كرة الأرض من محورها . وتعلمنا أن الأمم

المتحدة التى أصبحت ديدبان السلام فى الأرض، قد أنسيت فى الشرق آية الحرية التى لن تنساها فى الغرب ، من تعاليم الرئيس الأمريكى العظيم أبراهام لنكولن « إن الذين ينكرون الحرية على غيرهم من الناس لن يكونوا بها خلقاء... وما دام هنالك إله عادل فلن يبقى لهم ما منعوه من سواهم » .

وثانيتهما : أن مصر إذا صدقت عزمها نطق القدر بلسانها ، ومشت قدماً إلى غاياتها ، تروع أمم الأرض بضراوتها وعرام قوتها ، وتسجل فى صفحات التاريخ ، مرة أخرى ، أن من يقاوم الحرية يقاوم وهج الشمس ، وتعالى النهار ، ودوران الأرض ، ويتحدى العناصر .

وتألق فى الثورة الأولى من البرلمان ، وخارج البرلمان ، هؤلاء الشجعان الذين حملوا ألوية الدفاع عن أسلحة الجيش والقضاء وحرية الرأى والمساواة ، وهى دعامات الحياة فى الأمم . وبرز فى معركة القنال وثورة الجيش رجال دخلوا التاريخ من أرحب أبوابه ، لن تعرف مصر نفسها إلا إذا عرفت نفوسهم ، فبصرت بمعالمها . والأبطال فى قمم معالمها .

ومن حق الأجيال المقبلة أن تسمع مع من سمع ، وتبصر مع من بصر ، ليتواتر الخبر ، وتؤول الشعلة المقدسة من يد إلى يد فلا تنطفىء أبداً .

فإلى بنى العصر ، على لسان شاهد عيان ، بعض اللمسات واللمحات ، من سيرة مصرى بطل ، سجل لنفسه يوماً من أيام مصر الناهضة فكان فيلقاً وحده ، وكان انتصاراً بتمامه — ليحملوا أمانتهم كما حملها الذين من قبلهم ، وينقلوا للأجيال أحاديث تلك العصبة « البدرية » من آساد القنال ، ويذيعوا آية الجهاد والاستشهاد من كتاب « أحمد عصمت » : « إن الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات » .

الكتاب الأول

عين شمس



« الشعلة من الشرارة »

بوشين

الباب الأول

الأرض الطيبـــة



عين شمس ، أو الريف الفرنسى فى مشارف القاهرة ، بلدة طيبة ، وعيش رغيد . كلما ألقيت البصر أمتعتك جنة الريف المصرى السعيد . أين منها « رفائيل » ومنقاشه وسحر بنانه : رفرف خضر ، وطرائق قدد ، لها فى التاريخ شأن أى شأن .

فواحة عين شمس أو « هليوبوليس » فى تعبير أجدادنا الفراعنة ، هى من قديم العصـور مهبط القوافل القادمة من الشرق ومن الشمال ، تدق أبواب العاصمة فتنيخ قليلا ، ثم تغذ المسير اليها فى رياض معشبة وحدائق غلب وحياض رواء . تتراقص فى صـفاء الأفق ، كأنها نظم الدر أو حبات العقد يزدان بها الجيـد المديد للقاهرة . وتختال فيها قصور سروات مصر وأثريائها ، من قصر القبة أو مقر الملك ، إلى قصور يوسف كمال ونعمت مختار وشيوه‌كار . هنالك تضرب المسلة الشهيرة بروقها فى كبد السماء . تروى آثار مجد الآباء وتنبئ الأبناء عن أخواتها القائمات فى ميادين « باريس » و « نيويورك » و « لنـدره » ، بين سرقات ، أو عطايا ولاة ، ضنوا بها أن تقوم فى ساحات حواضرنا .

وعلى مبعدة أمتار من المسلة تكاد تستمع نفسك إلى خطرات أثر آخر

هو « شجرة العذراء » . يحج اليها الحجيج من كل فج عميق ، ليريحوا حيث أراحت « العائلة المقدسة » ويتناجوا مع الماضي مناجاة الإيمان والاطمئنان .

وإلى جنبها بقايا المعابد القـــديمة التي خلفها « سنوسر الأول » و « أمنحمت الأول » تنظر الينا من أربعين قرناً ، وآثار « تل الحصن » حيث ينتهي البصر بقناة الاسماعيلية ، أو طريق المعاهدة ، ينساب كالحية الرقطاء بين القاهرة وأعمال منطقة القنال .

فيا له من مكان عجيب ! اجتمعت عنده معاهدتاريخنا الغابر ، ومتاعب جيلنا الحاضر ، من أجل القناة ومن أجل المعاهدة ...

ويا لها من محلة مباركة تهيء فكر صاحبها للمسئوليات السياسية بحكم ميلاده وبحكم مقامه ... !

في خواتيم القرن الماضي لم تكن الألوان المونقة ولا البيوت الفارهة قد زينت وجه هذه الزبرجدة الخضراء . فلم يكن فيها إلا منازل قليلة ، يقيم في أحدها الأستاذ الإمام « محمد عبده » ، وإلى جواره المستر « بلانت » المستشرق الانجليزي الذي أرخ للثورة العرابية فأنصفها ، ثم مسكن خاص « للخديو عباس » يقيم فيه مع زوج أجنبية ، ثم منزل « أحمد بك عصمت » ... رحل اليه بعد ان اشترى ضيعة فيها قصران للمرحوم « أحمد صادق باشا » صهر المغفور له « عبد الخالق ثروت باشا » .

وتوثقت عرى المودة بين « الأستاذ الإمام » وجاره . كما توثقت بين الجار وبين ثروت باشا أواصر الصداقة والألفة حتى قضوا .

كان أحمد بك عصمت مهندساً فرنسي الثقافة عصبي المزاج ، انطوائي النزعات ، هو الابن الوحيد لأبوين ورث عنهما مالا وجاهاً . فكانت حياته حياة نظرائه من أعيان البلاد وأماثلها ، لولا ما تميزت به من تعليمه

العالى ومشروعاته الخاصة وهواياته العلمية والعملية ولعب « البلياردو » ومخترعاته ... فهو يخترع تصميم قاطرة يبعث به إلى انجلترا فيعود اليه دون أن تقبله دور الاختراع ، فيبقى القطار حبيساً فى غرفات داره . لكنه يخترع جهازاً للتقطير ، غير كبير ، يسبك له فى باريس . ويبقى يقطر العطر ، حتى يقضى نحبه . ويخترع آلة جبارة للطحين وللرى تخرج الماء من أعماق الآبار ، وتطحن الحب لساكنى عين شمس ، وتبقى الآلات الضخمة سنوات تخدم الناس وتدر المال، وتذكر الأولاد الصغار بطراز المخترع الذى قضى .

وانتقلت أفكار عصمت بك إلى بنى سويف فأقام إلى جوار دار الحكومة ما أسماه الناس « خان الخليلى » فى بنى سويف ... عمارة كبيرة المساحة من دورين ، وصفين متوازيين ، يفصل بينهما فراغ ضيق يكشف عشرات الدكاكين للسماء ، فكانت سوقاً فذة بطرازها ، وبقطانها ... من مصورين أوربيين يرسمون بيع الصعيد ومعابده ، إلى تجار ذهب أو مصانع لبن ! إلى عطارين وخياطين وغيرهم من المتنافرين والمتشاكين ...

ويشترى الرمال الصفراء من الصحراء ، بمئات الجنيهات للفدان ، ويطلق مشاريع الفاكهة فى هذه الواحة أول من يطلق ، ويستحضر إليها نبات المانجو من الهند ، ويستورد « أشجار التوت » من قبرص فتنمو حتى تسد طريق سكة الحديد ، ويختصم فيها ومصلحة سكة الحديد ووزارة الزراعة فيبعثر آلاف الجنيهات فى هذه النزاعات ليبقى لإرادته سلطانها ، ولمصر هذا النوع العظيم ذا الثمار الكبيرة الذى تدين به له .

وينتقل من زراعة الفاكهة التى كان ينافس فيها وزارة الزراعة إلى تربية الحيوان ، فتزدحم حدائقه بعجائب الحيوان ، من حديقة بتمامها

النعام ، إلى أقفاص للطيور ، وللإيمو ، وللنسانيس ، وغيرها مما آل بعد وفاته إلى حديقة الحيوان بالجيزة .

أقبل المهندس الشاب على الطبيعة أيما إقبال ، كما أحب العلم والعلماء وحيى حياته قسمة بين رفقة الشيخ محمد عبده ، ورواد داره من العلماء ، وزراعاته المستحدثة ، وخدمة خاله وصحبته .

كان خاله الفريق — (المشير) — « عبد القادر حلمى » حاكم السودان العظيم وناظر الحربية ، يخلصه بخالصة من موداته ، حتى ليوصى اليه بالوصاية بعد وفاته على بنيه ، ويرحب به بعلا لكبرى بناته ، وأبرزهن فى العلوم واللغات وأوفرهن حظاً من الجمال . ويقضى الأشهر الطوال من كل عام بعين شمس يلتمس العافية فى أعطاف الهواء الجاف ، ويسرح الطرف فى أعمال ابن أخته ، من زراعة البساتين وإعداد أرض الصحراء لتكون أرض بناء ، تزيد ثراء صاحبها أضعافاً بعد سنين .

وكان « عبد القادر حلمى باشا » مفخرة وادى النيل جميعاً فى آخرة القرن الماضى وفى فاتحة هذا القرن ، فهو فى عقيدة الشعب وفى التاريخ بطل السودان ، القائد المصرى الذى استقال من الوزارة لامتناعها عن استرجاعه . وكان على ثرائه العريض وآلاف الأفدنة التى يملكها ومكانه فى مجلس الشورى ، معقد أمل الوطنيين فى البلاد بعد الاحتلال .

ذلك بأنه كان البطل العسكرى الوحيد من أبطالنا الذى لم يشرد أو يجرد ، إذ شاءت عناية السماء أن يكون مستغرقاً فى حروبه الخالدة بمصر الجنوبية بالسودان ، فى حين كان « عرابى » يحارب فى مصر الشمالية بالغرب وبالتل الكبير ، فلما أسر « عرابى » سكت صوت مصر فى الشمال ولم يسكت صوتها فى الجنوب . ولم يأخذ الخديو على بطل الجنوب اشتراكه فى عمل ضده ، فظل مطلق السراح ، يرمقه المواطنون بالإجلال ،

ويتناقلون ذكرياته فى السودان ، وابتهال المهدى والدراويش لله ليعصمهم منه بعد أن ولوا الأدبار فى كل لقاء ، فكانوا يصلون ويدعون عقب كل صلاة بقولهم : « يا رب يا قادر اكفنا شر عبد القادر » .

لم تكد تصطفيه وزارة سامى البارودى لقيادة السودان ، حتى رحل فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وأنقذ الجزيرة من الثوار ، وقاد الجيوش المصرية فى معارك خاطفة مظفرة فى « مشرع الداعى » و « معتوق » .

ولم يكد يرفع الأعلام المصرية المظفرة حتى جاءته أنباء الشمال عما سمى معركة التل الكبير فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فلم يتراجع ، بل تابع معاركه فى يناير وفبراير سنة ١٨٨٣ .

ولما منع الإنجليز أن ترسل اليه الذخيرة ، وأن تدفع رواتب جنده لينهزم ، واصل زحفه تحت مسئوليته لحساب الوطن ، لا لحساب الحكومة . وكان لا يدير الخطط فحسب ، بل كان فى قلب الجيش وعلى رأسه ، ورحى الحرب تدور ، فأصيب فى جنبه فى معركة « مشرع الداعى » وكسرت ساعته ، لكنه واصل الحرب . فأبى الإنجليز إلا أن يعينوا بدلا منه أحد مرؤوسيه ، بل ألغوا نظارة السودان التى كانت له ، وأعيد من الخرطوم فى أبريل سنة ١٨٨٣ . ولما عينه الخديو فى وزارة « نوبار » ناظراً للحربية ، عقب إلغاء نظارة السودان ، لم يلبث إلا يسيراً حتى استقال وحده من الوزارة فى سنة ١٨٨٧ لعدم استرجاع السودان .

فى ظلال هذه الذكريات كانت الأسرة تعيش ، وفى جوارها المستر « بلانت » والشيخ « محمد عبده » — التلميذ الأكبر « لجمال الدين الأفغانى » . والأستاذ الأكبر « لسعد زغلول » ، والمحرض الأول على التطوع للدفاع عن الوطن ضد جيوش الاحتلال فى صحيفة « الوقائع الرسمية » التى يرأس تحريرها . فلما حوكم مع زعماء الثورة العرابية ونفى ثلاث سنين ، قضاها ،

وأربعاً بعدها ، بين « دمشق » و « باريس » حيث أنشأ مع أستاذه جمال الدين صحيفة « العروة الوثقى » للدفاع عن الإسلام ، فلما عاد إلى الوطن تقلد منصب الإفتاء ، وتزعم « مدرسة الإحياء الإسلامي » لتربط التقدم الإسلامي بأسباب الحضارة المعاصرة .

فكانت حياة عصمت بك فى ذكريات أولاء ، ورفقة هؤلاء ، وفى الواقع ، حياة عامة على رغم صاحبها .

وإنك لواجد بداره إلى جوار « قاعة البلياردو » الكبيرة ، والقاعة التى كانت تحوى مائة وعشرين عصاً مختلفات ، من ذهب أو خشب أو جلد أو عاج ، إلى بيض نعام وجلود سباع ونمور وأنياب أفيال ، تلك المكتبة التى خلفها فى ثلاث قاعات فساح ملئت مصاحف تركية وعربية ، بين حديث وعتيق ، ومخطوط ومطبوع ، كان يقرأ فيها العلماء الذين يغشون الدار ويتدارسون مع صاحبها أصول الدين . وكتباً علمية هندسية أو تاريخية أو أدبية أو شرعية بالفرنسية والعربية ، بلغت نحو ألفى كتاب ، بينها بعض الكتب التاريخية مجلدة بالجلد الفاخر لما تضمنته من شروح لفتوح خاله فى السودان ، (كحقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنك باشا) و (السودان بين يدى غوردون وكتشنر لإبراهيم فوزى باشا) و (السودان لنعوم شقير) و (يوميات غوردون) و (السيف والنار لسلاطين باشا) . ثم ذلك المجلد الثمين المسمى « شجرة النسب » .

بل إنك لواجد إلى اليوم صور فاتح السودان فى شتى مواقفه ، وملابسه ، وتشريفاته ، فى كل غرفة من منازل أحمد عصمت .

بهذه الظروف العائلية اتصلت أسباب الأسرة بالواقعة الأخرى من مواقع تاريخنا ، فأضحى السودان والاحتلال مجالا حيوياً للخيال ، عند

من كان فيها صاحب خيال . واجتمعت له بحكم مقامه فى طريق القناة وبحكم ميلاده ، أسباب الاتصال الروحى ، والفعلى ، والعائلى ، بشق النزاع فى قضيتنا مع الإنجليز .

وبقيت فى ضمير الزمان وآجل الأيام ، تهيئة البطل الجديد من أبطال هذه الأسرة ، للجهاد والمستقبل .

انقضت حياة عصمت بك فى سنة ١٩٢٦ عن خمسمائة فدان ورثها عن أبيه « محمد بك عصمت » ، وسبعين فداناً اشتراها هو فى عين شمس ، وحدائق حيوانه ! وخان الخليلى ! والمكتبة ، ودواليب الرى والطحين والتقطير ، وغرائب المخلفات ، وذكريات مجد .

وكان « محمد بك عصمت » من عمال الخديو « إسماعيل » . آخرة وظائفه وكيل مديرية بنى سويف ، شهد النور فى « بلدة زاوية بلتان » من أعمال القليوبية أحد أولاد « الشيخ حسنين شادى » وكان شيخاً بالمنطقة عند توزيع الزمام بعـــد موت محمد على ، فأصاب ثراء عظيما توارثه بنوه وأحفاده ، تتعالى به فى سماء الزمان « شجرة نسب » ذات فروع كثر ، تنتهى إلى قبيلة بنى مخزوم فى جزيرة العرب ، وتحتفظ الأسرة بها فى الغالى من مقتنياتها .

أنجبت للمهندس الشيخ زوجه . وكان نسله منها فتاة ، لكنه كان يهوى البنين ، ويتخير لنطفه ، فأصهر ـ عندما دنا أجله ـ إلى أسرة بياض الشهيرة العربية الأصول فى الفيوم ، وولدت له زوجته الجديدة بنتاً أخرى ، ثم غلاماً فغلاماً أسماه أحمد ، فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، لم يحل عليه الحول أربعاً حتى فارقه أبوه فى الحياة الدنيا ، ثم فارقه أخوه .

* * *

نشأ أحمد من حداثته يتيما كما ينشأ الأنبياء ، غير مقتر عليه فى الرزق

كأبناء الأثرياء . لكنه كان يحس من يتمه كأصاب غضاضة ، فسيطر عليه الحياء إلى جوار الانطواء الذى ورثه .

هو ذا فى مدرسة الجزويت (العائلة المقدسة) تلميذ فى طليعة أقرانه . تحمله سيارته الخاصة اليها ومنها صباح مساء ، حتى إذا أوى إلى داره قضى وقته فى غرفات أبيه أو مع الجنانين ، بين أحراش النعام وأقفاص الحيوان ، وأشجار المانجو وزهور الداليا والزنبق والجلد يولا ، معكوفاً عن الناس .

فإذا صور فوق الهرم تبدى لك يرفع رأسه ويدفع صدره وهو حدث ، وإذا رسم بين أقرانه من تلامذة الجزويت وضع ، وحده ، على راسه طربوشه . كأنه العلم المصرى بين الأجانب .



لاعب التنس

حتى إذا أتم دراسته فيها حمل الشهادة الابتدائية فى نحو الثانية عشرة من عمره مبرزاً بين الدارسين . مجيداً للفرنسية حافظا أسير أشعارها وأذهبها على الألسن ، من شعر « راسين » « وكورنى » « وفكتور هيجو » « ولامارتين » ومن نثر « بسويه »

لكن فى دراسة الجزويت تضييقا . وفى الفتى نزعة غلابة إلى الحرية ، فلم يكد يحرز الشهادة حتى انطلق بين النقيضين إلى الجامعة

الأمريكية حيث يعامل التلاميذ أساتذتهم معاملة الزملاء . وإذا الفتى النابه في دراسته الابتدائية ، والذي كان يتألق ذكاء وألمعية ، قد أخذ يتعثر جده إلا في رياضة التنس ، فصار يشار اليه فيها بالبنان بين الفتيان ، ثم عرف التدخين فصار له عادة لم يفارقها فكانت كبرى هناته ، ولو أنه لم يكن يدخن أكثر من ٢٠ سيجارة في اليوم كما جاء في أوراق القومسيون الطبي في ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٥١ .

وكان يطرق أبواب الثامنة عشرة ومن حقه أن يدير أمواله ، فترك دروس الجامعة إلى دروس الحياة ، وإلى المطالعة في مكتبة أبيه ـ فقرأ كتبها الهندسية ، جلها إن لم تكن كلها ، وبعض كتب الطب ، أما كتب التاريخ الإسلامي والفرنسي فالتهمها التهاماً . وكان التاريخ المصري موضوعه المفضل . يحمل كتبه الفرنسية والعربية عند الساقية وتحت تكاعيب العنب وفي كل مكان .

كانت متاعب الفتى في ذلك العهد ، فوق مستوى حدث لم يكد يطر شاربه بعد ، لكن الذين شهدوه في هذه الأثناء استبانوا فيه أصالة تعلو على المعلومات والتجارب ـ فلقد تولى إدارة أشيائه بغرائز عارمة تلتمس النجاح ، فهو بين زراعاته في مصر أو المديريات وبين قضاياه موزع ، لكنه مقتدر ، قربت سياراته القوية بين القاهرة وتلك الديار . وحماه شباب قوي وشمائل ضمنت له محبة الخلطاء وصفاء ود العشراء ، إذ كان معطاء لا يكاد يعرف الأخذ . فاذا تعامل عامل متعاليا لا مساوما ولا مماكسا ، لا يكفيه أن يترك الناس تعيش ، بل كان يهنيه أن يجعل الناس تعيش معه أو من حسابه ، يترك قدراً لا يقل عن خمس الإيجار عند تحديد الأجرة لمستأجريه في غالب أمره ، وقد يصل إلى الثلث ، لأن لهم بيوتاً تعودت أن تعيش من إجارة أرض آبائه وأجداده . لكنه

يقتضى بعد ذلك حقه كاملا لا ينقص دانقاً ليعود مستأجريه الدقة معه .
ولكم كان كبيراً فى عاطفته دقيقاً فى حسابه .. !

تحدث بطائفة من الحديث عن واحد من مستأجريه فإذا هو قد جامله فى بضع سنوات بسبعة آلاف جنيه ، وكان يستغرق فى التفكير ويقول من حبه له ، ومع ذلك فالشيخ يستحق معونة أكثر .

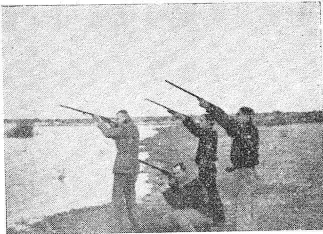
ولما مات كان كبار مستأجريه أعلى الباكين نشيجاً ، وكاد أحدهم ، وهو من أقدم عمد البلاد ، تبيض عيناه من الحزن .

تمرس الشاب بقيادة السيارات منذ الثانية عشرة وتداولت يده بضع سيارات درس آلاتها ، ونحى سائقه عن أن يقود له ، وقصره على القيادة لأسرته فى عربة أخرى .

كان يذهب إلى الريف ويعود فى جوف الليل وحيداً ، ويخوض إلى أسفاره غرائب الطرق فى الصحراء ، يدفعه شبابه إلى اقتحام المكاره والمخاطر . وإن كانت قد ظهرت عليه أيامئذ ظاهرة تبدو لغير الملم بطبعه غريبة ، تلك أنه بعد أن كان يقود سيارته وهو تلميذ بسرعة خاطفة أخذ يقود باطمئنان واتزان واعتدال . ولم يكن قد عبر حدود العشرين فى هذه الفترة حتى أتقن استعمال الأسلحة بكل أصنافها ، فكان يخرج للصيد مع زملائه إلى الفيوم حينا ، وإلى الشرقية حينا ، وإلى البركة غالباً (قريبا من عين شمس) .

ويعود من عمله أو رياضته ليرتاد حدائقه الواسعة اللفاء ويصطاد ، وفشا فى الناس إتقانه استعمال السلاح فلم يتسلق أسواره ، أو يقتحم داره على تخوم العاصمة ، غر مغامر من بدو الصحراء .

وفكر فى الزواج قبل أن يبلغ التاسعة عشرة . وكان معروفا بيساره



فى الصـــيد

مرموقا لما فيه من فحولة الرجولة واستقامة الطباع وبساطة السن المبكرة مما يغرى بالاهتمام به والإصهار اليه .

قيل له إن وزيراً من أنسباء الأمراء ، يود لو أصهرت اليه ، فطوى كاشحا يقول : إذا كنت أريد الزواج فسأتزوج ، ثم تبسم ضاحكا وقال « إننى أريد أن أتزوج ولا أريد أن أتوظف » ! وأخذ يهيء لزواجه الأسباب ، فلما صار إليه كامل أمره استكرم الأصول من الأسر الشهيرة فى جيرته وعشيرته ، فأعرس بحليلته ، وراح يبنى أسرته الخاصة فى مزاج من اليسر وخفض الجناح والإقبال على الحياة . وتراءى لعشرائه أن الزواج وانتظار الأولاد وإدارة المال ستكون منتهى مناه .

أقبل الفتى على داره الصغيرة يعب من طمأنينته ومن هناءته عبا كأنما دنياه دنيا من الأحلام . يولد له ولد إثر ولد وبنت ثالثة فى السنوات الأولى من زواجه ويتخير لهم المربيات من ألمانيات ومصريات

ويحمل هداياه إلى أهله وبنيه فى تلك المناسبات ، والدنيا العريضة أضيق من أن تسعه . ويطيل القعود إلى مربية أولاده ينصحها ويبجلها كما تبجل الجدات .

وهذه عربات صغار وقطر كبار ، وطائرات ومسدسات وسيارات لبنيه ، ثم هذا مسكن أنيق للمربية الألمانية ، وهكذا سلخ من حياته أياما كانت متعة لمراقبها وجنة الخلد لصاحبها .

* * *

وما أن رفع عن كاهله عبء الأوصياء ، حتى أدار وجهه إلى قضاياه ، يصنع فيها ما صنع بحدائق أبيه .التى عقد الإهمال أمرها ويسر هو عسرها فالوصى من أهله معترف له بآلاف ، والغير من الناس محكوم عليه ببضعة آلاف أخرى . والوصى الأجنبى فى ذمته بضعة آلاف غيرها فيقول : لا أرب لى عندهم ، ولن تذهب نفس حسرات على المال ، فقد عفا الله عما سلف .

قيل له إنك متلاف ... فأمسك هنيهة ثم انطلق يقول « إننى أتهم فى المودة بالإتلاف ، والحق أننى لا أترك مالا بل أسباب خلاف ، وأستبقى علاقات الأخوة والبنوة وبعض الراحة ، وابتسم يقول « بالعطاء نأخذ » ثم قالها بالإنجليزية «Sir by giving we take ... By giving we take» وراح يسأل : « ما رأيك فى ابتسامة الطفلة فلانة ؟ ألا تساوى ألف جنيه مصرى من الذهب ! ! » ثم يقول « لعل ذلك أقسط وأعدل »

واستطرد فى نظرية إزالة الخلاف إلى منتهاها فلم يمالىء فى أسرته حزبا على حزب ، أن كان هناك فريق أولاد عبدالقادر حلمى (باشا) وحفدته ، وفريق هم الأقربون ، فكان هواه مع (جماعة الباشا) يزورهم ويلين لهم ، وبعد أن كان فى طفولته لا يراهم ، أضحى فى رجولته يقضى أيامه

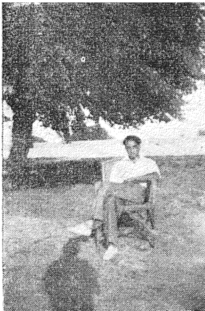
وإياهم ، فإذا عضتهم الألسن الذربة نافح عنهم واعتنق قضاياهم . بما فيه من قصد ونصفة .

والتفت إلى حدائقه فخط فى قسمات وجهها خطوطاً بارعة من سمات العصر ، فنزع وخلع وحول وبدل وأصلح . فأسفرت كالوجه الملثم بعد إذ أميط عنه لثامه ، أو الصفحة المقروءة بعد أن كانت لا تفك خطوطها ، وعلى الحق حملت وجه هذا الفتى السمهرى القامة الواضح القسمات .

وانطلق على أثر أبيه ينثر الذهب من جديد . فى بضعة وعشرين فداناً من أرض المساكن ، يقوم الواحد منها ببضعة آلاف . فملأها أشجاراً وأسواراً . وأخرج الزرع شطأه معجلا ، واستوى على عوده ، فأينعت الصحراء على يديه . وأورق الجبل على أعين الناس وهم لا يكادون يصدقون ، لولا أنهم يشهدونه مسربلا بسراويلاته تحت شجيراته ، فى حمارة الحر أو صبارة القر ، ينبش بيده وكأنما يلثم كل شجرة ويقبل تراب الأرض المصرية التى كان يعبدها .

وكأنما كان يحس عليها وطأ أقدام أبيه . وكان يؤرقه التحنان دائماً إلى آبائه .

كان يكثر الاختلاف إلى خلصائه وأصدقاء أسرته تحت هذه الشجيرات ، يناقشهم فى



تحت شجيراته

السياسة الدولية والداخلية وَهوشات الأحزاب ، مناقشة رجل يقرأ الصحف الإنجليزية والفرنسية والمصرية اليومية والأسبوعية والشهرية ، ويستمع إلى كل محطات العالم ولا يبرح ذاكرته أن أباه كان قرة العين لخاله عبد القادر حلمى ، وصديقاً لمحمد عبده ، وعبد الخالق ثروت ، وأن حمد الباسل وكيل ، الوفد المصرى ، وأحد رؤسائه ، وأحد الذين نفوا مع سعد إلى مالطة سنة ١٩١٨ ، كان زوج خالته ، فتتلاقى فى ذاكرته أخلاط من الذكريات ، عن أصول ومصادر ورجالات له بها صلات، بذل كل منها جهده فى الدفاع عن الوادى ضد عدو واحد مشترك: هو الإنجليز .

وكانت الحرب العالمية الثانية دائرة الرحى ، فكانت أحاديث اليوم تدور حول كرة الارض ، ومصر ميدان المعارك الحربية وللفساد السياسى ، تصلى نار جهنم من تدخل الإنجليز ،وتغيير وزاراتها والاعتداء على سلطانها . فى حين تلوى بطون بنى الوطن من الجوع سبع سنوات عجاف كسبع يوسف .

وكانت عين شمس ملتقى الطرق إلى مناطق الجيش المحتل . ومهرباً لكل من باع سلاحاً من الأسلحة الإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وهو أظهر الملاك فى عين شمس ، يفد إليه عماله وبدو الصحراء القاصون والدانون بالسلاح من كل مألوف ومغرب . فيتخير منها ما ينفعه ويصدف عما لا نفع له فيه . فصار حجة فى الصيد وفى السلاح وأسعار السلاح وتعليم استعماله . حتى أفراخه الصغار كان يحاضرهم فيه ليفهموا ما يحيط بهم وبه ويعيشوا ، كمثله ، فى جوه ، وما أشد ما كان فيه من رائحة سلاح ، وخراطيش ، وأصوات قذائف .

وفى سنة ١٩٤٠ كان فى الحادية والعشرين والتمس لديه صديق صار

من بعد نائباً عاماً ، أن يشير عليه فى شأن من شئون السلاح فأشار عليه وأحضر له . وكان رجال البوليس المحليون يعلمون خبرته فى السلاح . بل لعل بعضهم كانوا يشعرون بأنه فى حجرات لديه . ولكنهم كانوا يقدرون مكانته وأمانته فلا يسألونه .

ومن بعد ذلك بأعوام كانت حدائقه ، وحدائق أخرى بازائها مستودعا لسلاح استعمل أكثره المتطوعون فى حملة فلسطين . وكان لتمكنه من أمور السلاح يصلح الأسلحة الفاسدة . ويزاوج بين قطعها مزاوجة الخبير . أفضل الأسلحة عنده السلاح الألمانى . أما بنادق الطليان فلم يك يأبه لها .

وغلبت عليه طبيعة المهندس التى ورثها . فكان يصلح بيده سياراته وآلات الرى الخمس فى أرض عين شمس . وتتداول أنامله دقائقها تداول الميكانيكى الثقة . يدرسها على الطبيعة ، وفى محال البيع . وفى كتب الهندسة من مكتبة أبيه . ويعلم عماله عليها عملهم . ويراقبهم . فيدهش جيرانه ، كما يدهش أقرانه . بما فتح الله عليه من « هندسة تطبيقية » .



الباب الثانى

محقق المشروعات الكبيرة



تزخرفت الدنيا وازينت للفتى السعيد ، فتراءت هناءة نفسه فى قسمات وجهه وبسمات فيه ، كأن البلهنية أو الرفاهة لم تعبر عن نفسها بأوقع من إشارات يده أو حركات رأسه أو خطرات نفسه وانبعاثات وجدانه .

ولما أقبل على أن يبنى لنفسه داراً جديدة ، كان ذلك هو التعبير المنطق عن نفس ، قادرة على الكثير ، أوفت على الغاية ، وكأنما أعطيت مفاتح الأرض بالرضا والقناعة ، فلم يبق أمامها إلا أن تبنى إطاراً للمعانى التى سعدت بها ، فى دار تسع الأسرة الوادعة الراضية بما قسم لها ربها .

ولقد طالما يفكر الرجل فى أن يبنى الدار بعد أن يسلخ من سنواته الأربعين والخمسين والستين ، وعلى ذلك تستفحل نزعة البناء عند الشيوخ وتندر لدى الشباب .

لكن الشاب الذى لم يبلغ الثانية والعشرين ، كان قد بلغ بنفسه مكاناً عليا استقر عنده ، فرأى أن يبنى لنفسه دارها ؛ ولم يجد خلطاؤه فى ذلك عجباً ، لأنهم عليمون بقدرته على أن يوفر المال لكل مشروع أراده ، وإن كان قد شرع فى البناء وليس لديه منه وفر ، فان عاما واحداً

من الاستقامة ، والمقدرة على التنفيذ ، وتدبير شئونه ، طوع له أن يشيد تلك الدار .

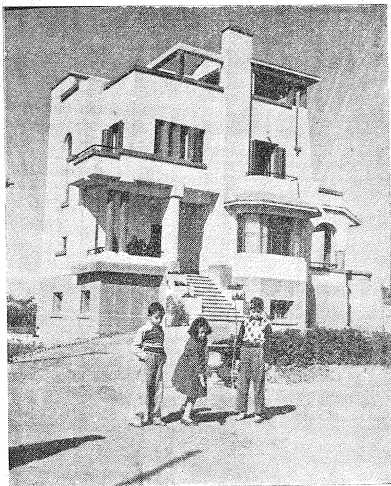
كان مسلماً أنها ستكلفه بضع آلاف ، فاقترح عليه أن يقيم صرحها فى أحياء القاهرة حيث يتناطح أولو اليسار بشواهقهم ، كأنما يضربون فى السماء بروقهم ، وزينت له الأسماء والأصقاع فقال : أريد أن أبنى فى أرضى ، حيث شهدت النور ، وجرت قدمى وقدم أبى وأهلى من قبلى .

كان يضن بذاته فيستعلى على أن يقتحم عليه أحد خصوص نفسه ، وفى الوقت ذاته يريد أن يبقى حيث هو . فلا يوغل فى خصوص غيره منافسا أو مدعيا ، أو لعل ذلك كان بعض انطوائه .

وكما يدل أسلوب الكتابة على الرجل ، وأسلوب العمارة على العصر ، دل أسلوبه على ذاته . إذ شاد هذه الدار الأنيقة وحاطها بأربعة آلاف متر حديقة فيحاء ، يتضوع منها العطر فى كل الأرجاء ، وتتألق عيون أزهارها الضاحكة فى كل ركن ، على جانبها عشرات الأفدنة من حدائق الفاكهة له ولذويه . وكأنما تنطق بأن صاحبها لا مطمع له من نعيم حياته ، إلا أن يحفظ الله له نعمة الاستقلال .

وراح يدخل فيها ما يستطرف من أساليب الحضارة الحديثة ومتاعها فكانت فى داخلها داراً أمريكية الجهاز ، وفى خارجها مصرية عربية الطراز .

فى ذات يوم أخطره أهله أن إحدى شركات السينما أقبلت تصور داره لتعرض مناظرها فى أحد الأفلام ، وكانوا يعلمون عزوفه عن أن يجر إزاره فى الناس خيلاء . فسألوه أيأذنون للشركة أم يعتذرون ، فأجاب فى سماحته المطبوعة أن يمكنوا المصورين مما طلبوا سواء أكانت الحديقة أم كانت أبنية الدار على ألا يصوروا أشياء الأسرة الخاصة . . . ثم خف إليهم يقول ما خشى أن يعجز أهله عن الإدلاء به . وظهر البيت فى فيلم « المصرى أفندى » تحفة رائعة .



زهرات تتفتح

كان البناء آية انسجام حياته الداخلية واستقرار حياته الخارجية حقاً ، لكن ما فيه من نزعة التقدم وجهه إلى أن يتعلم الطيران . ولعل مرد ذلك إلى أن القعود ليس من طباعه ، أو إلى نزوعه لأن يكون سعيه فى السماء.

دخل مدرسة مصر للطيران كما دخلها معه أو من قبله ثلة من الشبان ،

والأعيان ، تخلفوا عن الدرس واحداً بعد آخر ، لكنه لم يتوقف أو يتخلف يوما واحداً ، بل كان يذهب فى غير الساعات المخصصة له ليتعلم مع غيره فوق الساعات المخصصة له ، فى مصابرة ومثابرة يسرتا له البدار فى تمام تعليمه .

ولم يكد يحرز شهادة الطيران حرف « ا » حتى عينته شركة مصر للطيران بين طياريها بأجر جنيهات معدودة .

كانت هذه الجنيهات عنده خزائن الأرض من مال قارون ، تذوب نفسه جذلا إذ تصل إلى راحتيه ! ومع أن مرتبه فى الشهر لم يزد على خمسين جنيهاً فى أيامه الأخيرة ، كانت تكلفه قريباً منها سيارته التى تقله إلى المطار ، غير مرة فى النهار ، فقد كان يقبض أجر الطيران على استحياء ، ولو كلفه الطيران أكثر من ذلك الأجر لأنه كسب يده ، لا كسب جده ولا ميراث والده .

التمست « شركة الخطوط العالمية للطيران » مراقباً للمطار لقاء مرتب كانت جملته أربعة أضعاف ذلك المقدار ، وكان من أغراضها أن ينتدب لذلك طيار مصرى من طراز خاص فوقع عليه الاختيار ، ولما عرض عليه الأمر طلب من نقل العرض إليه أن لا يبت فيه إلا غداتئذ ، فقال وفيم الإرجاء ؟ إذا كان العمل فى أرض المطار فإنى رافضه . إننى أريد الطيران نفسه ولو دفعت مثل ما يعرضون .

ثم اقتضت معاهـــدات الطيران ألا يطير إلى الخارج على الخطوط الدولية إلا طيارون يحملون شهادة « ب » فى الطيران ، ولم يكن طبعه يحتمل إلا أن يتجهز لعمله بأحسن جهاز وأكمله ، للإتقان الذى كان مفتاح طباعه ، فعلى هذه القاعدة أتقن دراسة الآلات الميكانيكية لما تعلم قيادة السيارات . وتعددت عنده آلات الرى .

ولما أخذ يخرج للصيد لم تنصرم شهور حتى صار من أمهر الرماة ، ولما لعب التنس صار معلما بين فريقه ، ولما زرع الأشجار تزود لزراعتها بكتب أبيه وبالكتب الحديثة ، فهو لا يقارب عملا إلا أتقنه ، ولا يرضى أن يعمل له أحد عملا إلا كل حجة فى فنه .

فاذا استعان بطبيب فان طبيبه مدير الجامعة . وإذا وكل محاميا فان وكيله هو « الهلباوى » النقيب الأول ، أو غيره من النقباء والأساطين ، وإذا اشترى سيارة فهى « الباكار » أو « الكريزلر » أو « الدستو » ، لقوتها لا لأبهتها ، وإذا التمس حائكا أو بائعاً أو صانعا لم يرض بغير من بلغ الذروة من تجويد صناعته وإتقانها .

تجلى فى دراسته لشهادة «ب» فى الطيران بما فى دمه من ميل إلى الهندسة ، وحببها إليه أنها كانت دراسة الدقة وحسابات الأبعاد ومهاب الريح ، هندسة خالصة وجبراً وحسابا ولوغريتمات . فكرس ساعات فراغه لها وأحال الدور الأول من بيته مدرسة للطيارين ، يحمل إليها الاساتذة والتلاميذ ضيوفا ، وتشترى الكتب من مصر أو إنجلترا ، أو باريس . وطاوعته اللغات الثلاث التى يتقنها . وكان بنوه يصطافون فى الاسكندرية ويبقى هو فى القاهرة من أجل دراساته صيفاً بعد صيف ، وإذا سئل عنه فى المسرة رد أبناؤه إذا كانوا فى رفقة معلمهم أن أباهم هو الآخر مع « حضرة معلمه » ! ! ويدين له الأمر فيمنح الشهادة فى طليعة طالبيها .

قال الممتحن لزملائه إننى فى حرج إذ أمنح هذا الفتى هذه الشهادة ، فهو أصغر الطيارين سنا والشهادة تطوع له الرحلة على الخطوط العالمية عبر المحيطات ، لكن إجاباته تجعلنى فى حل .. فمنح الشهادة بعد تردد .

أما معلمه فى الطيران الليلى فسيقول يوما والدموع تنهل على خديه .

« لقد خسرت مصر هذا الطيار ولم تخسره شركة مصر وحدها . ومن المؤكد أن الزمن لن يجود بمثله قبل خمسة عشر عاما » .

كانت رحلات الطائرة فى خارج مصر وداخلها تملأ قلبه حبا لها . فالطائرة تحلق فوق مصر فتريك وجهها الأصيل كما برأه الله بملامحها الثابتة على الزمان ... النهر يجرى كشريان الحياة فى الوادى ، نخلة باسقة سمراء تهز رؤوسها الخضراء فى الدلتا ، وعلى جانبيه حراس أقامهم أباؤنا من قديم الأزل ، هم المعابد والأهرام والآثار والقصور الخوالد ، تحمل إلينا مشعل الحضارة وتضىء لنا بقيننا فى أظلم عصور الشك فى قوتنا . وتقول للمصريين وللغزاة جميعا : مصر باقية . وتذيب عصاراتهم أو حضاراتهم فى حضارتها . . . وما هى إلا ألوان مصر الأصـــيلة فى قيمها العليا . وطابعها القوى ، وخصائصها الباقية ، وسمائها الصافية ، ومياهها الزرقاء ، ورياضها الخضراء ، وصحراء الذهب . لا يلقى الطائر عوجا ولا أمتا ، فوق محورها من القاهرة إلى الخرطوم ، إلا أن تكون إحدى أسرها القديمة قد أخرجت قلبها ، هبة منها للأجيال اللاحقة ، فى شكل هرم .

ركب النقراشى معه إلى الاسكندرية ذات يوم وكان يخاف الاغتيال السياسى . فلم تكد الطائرة تحلق فى الجو حتى شعر أن الباب قد انفتح ، فبعث مساعده يحكم رتاجه فانفتح مرة أخرى ، فبعثه أخرى ، ورجع إليه يقول إن الباشا لا يريد أمامه بابا مغلقا . فكلفه بأن يغلق الباب على الباشا . فلم يكد يفعل حتى انتقل رئيس الوزراء إلى غرفة القيادة . فلما بلغه قال له فى إسماح وخفض جناح « ليت الباشا يرجع مكانه » قال « وهل ثم ما يمنع أن أكون هنا » قال « إن الأصول تمنع وفى عودة الباشا طمأنة لزملائه الراكبين » ، وسيطرت ابتسامته وطهارة قلبه على قلق الرئيس . . فلزم مكانه .

وما صنع أحد إلا ما يصنعه دائماً من التزام الدقة فى القيام بعمله مع إلزام غيره نفس الحدود ، ولو كان الخارج عليها رئيس الوزراء .

* * *

حمل الطيار الصغير الأجنحة المصرية فى آفاق الخطوط العالمية رفرافة فى أعالى القمم من معاهد الحضارة الحديثة ، فكان أمل شركته وزملائه ومعقد آمال الرؤساء ، يستعجلون قيامه من « جنيف » ويرفض هو المخاطرة بالطائرة فى أحوال جوية سيئة ، محاججاً بقوله : إنكم تريدون اقتصاد الساعات وأنا المسئول عن اقتصاد الأرواح . والرأى فى المفاضلة معروف ، فلم يكونوا يملكون جواباً .

وإذا أقبل الطيارون بعضهم على بعض يتلاومون ، قلب الأمور لزميل يستحب أن يوصف بالجرأة « لأن المجازفة بأرواح الغير ليست شجاعة ولا براعة . وإنما قيادة الطائرة عمل هندسى كاستعمال السلاح ، من أشراطه الاحتياط . والحكم فيه للحساب وحده » .

ولقد كانت تكرث الكوارث عالم الطيارين فيتدارس مع أترابه تقاريرها ، ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعلم مأتاها .

من أجل ذلك لم يحدث له حادث واحد فى سنوات عشر ! وكان رؤساؤه يندبونه للرحلات التى تعلن عن مظهر الشركة فى الخارج أو تحتاج براعة فى الهبوط والصعود .

عاد مرة من « صنعاء » اليمن بخنجر ملكى قدمه له « ابن الوزير » يوم ولى الملك بعد مصرع « الإمام يحيى » . فكان يتخذ ذلك الملك القاتل سخرياً ، ويقول : إن فى هذا الخنجر رائحة الدم . . . ويريك الخنجر ويقول : انظر فتلك قطرات دم ... هى ذى قطرات دم . تكاد تتكلم

وفى ذات يوم عبر البحر الأحمر إلى الخرطوم وبينا هو يهم بالهبوط من سمائها خذلته الطائرة ، أن خذلتها عجلاتها عند التدلى ؛ وكان ذلك عيبا تكشف للشركة فى بعض طائراتها من قبل ، تم لها علاجه من بعد ، وكان قد اتخذ مظهراً خطيراً من نحو أسبوع فوق سماء بيرت .

طافت الرؤيا بخياله فى سماء الخرطوم فذكر كعادته ربه . وملك ـ كدأبه ـ إربه ، وأخذ يدرس موقفه فى السماء . وتوالت الاتصالات اللاسلكية بينه ، فى سماء السودان المصرى ، وبين شركة مصر فى مطار القاهرة ... قال : إن جهاز العجلات تعطل كما سبق فى الأحوال المماثلة وسأحاول إنزاله بضغط السوائل ، واستعمل الزيت المعد لذلك فلم تهبط العجلتان . وتتالت الموجات فى سماء مصر وسودانها . . يقول لهم : نفد الزيت ولم يبق أمامى إلا الماء وسأفرغه من الثلاجة ، وسال الماء إلى جهاز العجلات ، والجهاز لا يستجيب ، حتى فرغ الماء ، واقتربت الساعة ، فلم ينخلع فؤاده رهبا ، بل راح يداعب على الموجات اللاسلكية الجالسين على كراسيهم فى القاهرة بقوله : والآن لم يبق إلا زجاجات الكوكا كولا ، ثم قال ضاحكا : أحاول الآن بالكوكا كولا Trying with Coca Cola ، وأمر فصبت الزجاجات التى أعدت ليشربوها .

ونفدت الزجاجات إلا بعضاً . ونزلت عجلة واحدة واستعصت الأخرى ، وهو كعدم نزول العجلتين معاً أو أشد ، لأن انقلاب الطائرة من جرائه على الجانب الآخر مؤكد ، إلا أن تحدث السماء معجزة . وأهلّ على الركاب فى مظهره الذى كان يتجلى فيه دائما . . وجه باسم يفيض رجولة ومقدرة تنقل الثقة إلى سامعيه . قال : إنى سألجأ مع مساعدى إلى التحليق فوق المطار حتى يفرغ الوقود . وعند ذلك سأكون قريبا ـ



لم يبق إلا الكوكا كولا

حتى قريب — من الأرض . وهكذا يكون هبوطنا على عجلة واحدة أمراً لا خطورة فيه . فاذا كان ثمة مخطرة لم تكن إلا تهشما يسيراً فى الجناح . وشرط نجاحنا أن نصنع ذلك جميعا معا . فلا تضطربوا فتخلوا بتوازن الطائرة عند النزول ... وحومت الطائرة المصرية فى سماء الخرطوم على ارتفاع خفيض ، حتى ينفد الوقود ، ولا نتعرض للحريق ، وكان بين زملائه واحد قدر له من قبل أن يسهم فى حادثة « بيروت » فقال له أحمد « أرأيت القاعدة الجديدة للنزول وهى إفراغ البنزين أقرب ما نكون إلى الأرض ، على غير ما صنعتم فى بيروت ، فهل تسلمون أنها أقل ضرراً وأكثر فرصا ؟ » قال « بلى » قال « ومع ذلك نجوتم هناك » قال « إذن سننجو هنا »

وأخذ يسيل دعابة كانت تجيئه دائما فى المواقف ذات المفارقات . قال زميل بيروت « وكنا هناك فى ضيق ونحن هنا فى مرح . وتلك قاعدة

أخرى ، واستمروا تطلع أعينهم بين الفينــه والفينة على المضخات تتجمع من كل أرجاء الخرطوم ، فى انتظار الحريق عند الهبوط ، حتى دنت ساعة العسرة وهم إلى الثرى أقرب ما يكونون ، ونزلت الطائرة ، ما شاء الله ، على عجلتها اليسرى . وكأنما سخرت لها الريح تجرى رخاء حيث تصيب ، فجرت من خفة صدمتها على أرض المطار ، كدمى الأطفال على قدم واحدة ، لم تتكفأ ولم تتكسر . . . ! وهتفت مصر والسودان للأبطال الذين كللوا الأعلام المصرية فى السودان بالفخار .

ولما هبط أرض مصر ، جرى التحقيق ساعة لم تكد تنقضى حتى طلب له المحقق علاوة تقديراً لبراعته .

فى هذه الحادثة من حوادث السماء صورة مصغرة لحياة أحمد عصمت على الأرض . قوة أعصاب ، لا تهاب ، وثقة فيه ، وثقة منه ، وعقل حسابى ، وبراعة نادرة فى التنفيذ ، وقيادة فريق .

ولقد كان الله معه دائما لأنه كان دائماً مع الله . يذكره فى الآزفة ، حيث يولى العقل أو تتحكم النزعات أو يضرى الصبا والفراغ والجدة ، أو فى مباهج الليالى المشرقة فى « روما » و « جنيف » أو العطلات الطويلة فى « الريفييرا »... ذلك الطهر الذى لم يعرف الخمر . ولم يقترف الميسر . فلم يدخل الخمر داره ولا أوراق اللعب . على كثرة ما دخلها فى رفقته الشباب الذين يشربون ويلعبون من زملائه .



الكتاب الثانى

الرجل والانجليز



فى كل عصور التحلل والانحطاط ، تنشغل
النفس بذاتها ، وفى عصور التقدم تنشغل
النفس بالعالم الخارجى . جيته

الباب الأول

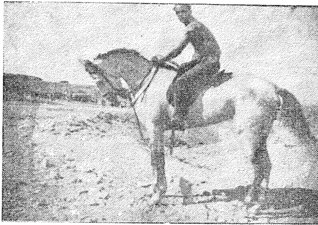
الرجـــل



شارف الفتى حدود الخامسة والعشرين فانبثقت ينابيع الرجولة من سكناته وحركاته وقسمات وجهه فبدا سمهرى القامة . عظيم الهامة . فيه من سمات القواد ، ليس بالقصير ولا بالطويل (طوله ١٧٠ سنتيمتراً) ضامر الجسم فى غير نحول (وزنه ٧٢,٥ كيلو جرام ومحيط صدره ٨٦ سنتيمتراً) . أدنى إلى البياض منه إلى السمرة ، نافذ النظرات ، فى عينيه شعاع عامر بالأنس والطمأنينة والتصميم ، غزير الحاجبين كث الشارب حليق الذقن كل صباح ، يميل وجهه إلى أن يستطيل من تحت جبهة متبدية للناظر . وأنف دقيق وفم أنيق ، يغلب عليه الابتسام . يكاد يحدثك أنه لا يستحب الكلام ، يعلو رأسه شعر رجل فاحم السواد ، أشعر الذراعين والصدر . لا يتختم ولا يتعطر ، ولا يتبدى فى الألوان الزاهية كذيل الطاووس من حلل الشباب أو قوس قزح ، وإن حسب الرائى أن يداً صناعاً قد تعهدته بالترجيل والتصفيف وإبراز آيات الرجولة وسمات الأناقة من حسن هندامه .

بل كان من صنع الله ما يطالعك به وجهه من بعض صفات الرسول أن « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه »

لتظنه من كبار الرياضيين وهو لا يمارس من الرياضة إلا يسيراً من الصيد . وكثيراً من السباحة كلما آذنته دواعى الفراغ . أو لتظنه فارساً أضمره ركض الخيل فى حلباتها ، وهو لم يعد يركض الخيل إلا لماما . بعد أن كان لا يكاد يرى إلا على على صهواتها ، وكأنما أضمرته الأفراس التى يمسك بأعنتها فى السماء . أو كأنما أضمرته همته .



« الفارس »

وفى حين عنيت بهندامه أيدى خياطين من أبرز الخياطين فى القاهرة كان ينكر المعروف من غلاء أثمان ثيابه . ويغلب عليه التواضع بل الانطواء . وحبه ألا يبدو عليه مظهر من الثراء أو الجاه ، كأنما الثراء عنده إحدى الكبر .

وفى حين يمشى مرفوع الصدر مرفوع الرأس عالى الجبهة نفاذ البصر ـ وتلك كانت مظاهر ثقته بنفسه ـ كان يمشى وكأنه يجرى ، فى هرولة ، ولا يلتفت للناس ولا يداوم النظر فاذا التفت التفت جميعا ولم يلو عنقه ـ وتلك كانت علامات تواضعه وحيائه ـ يدركها فيه بعض عارفيه ، إذ

يفصل عن دار يتكتم أمرها ، لمحروب أو محروم أو مستخدم يقول لهم معروفا ، أو يفشى فيهم عطاياه . وأجود الجود فى الخفاء .

داعبه صديق بلقب Comte d'Ein Shamse (كونت عين شمس) لجزع مخافة أن يظن به استعلاء .

لم يكن يطاول الناس بأشيائه ، ولا يجرى وراء الثناء ، بل يؤثر أن يحدث الشيء على أن يتحدث عنه ، ويبدى الرأى فى أسلوب يسر ولا يبهر ، فاذا تحدث أقل وأقنع ، ووضع المقالة فى مواضعها ، فى وعاء من الصراحة والمودة وإخفاء الفضل الذى له ، يشعر السامع أنه صاحب الفضل فيما يسمع منه . لا يتغضب على أحد فما فى قلبه موضع لحقد أو حسد ، يملك لسانه وسمعه وبصره . ولا يتسقط الخبر ، ولا يلقى السمع ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه . كل أولئك فى مزاج من الترفع والتواضع واليسر يحبب الدنيا التى هو فيها إلى من كتب له أن يلقاه فيها .

فإذا زاره الملك عبد الله ومعه حمد الباسل (باشا) ورسمت لهم صورة ، رأيت أنداداً ليس بينهم إلا فوارق السن . فاذا جالس الأصدقاء من الوزراء أو رجال القضاء أو كبار الكتاب والشيوخ أو النواب أو هيئة كبار العلماء ، فهو السمح المضياف يقرى ضيفه خير القرى فى أرجاء بساتينه ، وإذا تناقشوا أمامه فهو صموت سكوت يعلم أن من البلاغة حسن الاستماع .. وهو يزن بعقله كل كلمة ليهضم كل فكرة ، بعد أن يعمل فيها أوزانه وأقيسته .

كانت له صداقة بالأمراء العرب مكنت أسبابها صلاته وأسفاره ، وكانوا يقدمون القدمة إلى مصر فيولم لهم ، لا على طريقته من الاعتدال، ولكن على طريقتهم من البذخ . فإذا تحدث فى ذلك بعد إذ يفصلون عن داره كان كالمعتذر .

لـكأنما كان يحسب المجاملة فرضاً عليه فقضى حياته مجاملا ـ يجامل أصدقاءه بقروض لا تستأدى فلا تعرف إلا بعد وفاته ، فاذا علم أن خليلا له أو صفياً عنده يبنى بزوج كان كأنه هو ، فيمده بكل ما يسع جهده ، أما جيرانه فاخوانه وأهله ، يكاد يقاسمهم أشياءه ونفسه ، فاذا كان الجار الجنب أو الصاحب بالجنب خصما لأبيه على نحو خصومة الجيران أو تنافس الأقران ، انقلب الجار ولياً حميا لا يفتأ يسأل عنه. بل يبلغ به المدى أن يضحى به معجبا. كمثل ذلك المحارب القديم الفريق « عزيز المصرى » .

أما العلم فلا حياء فيه ولا مجاملة ، بل فيه مجادلة وحجاج : قرأ كتابا عن « الهلباوى المحامى » فأطلق آراءه فى الكتاب ومؤلف الكتاب ، غير مجامل ولا هياب ، فالمحامى عنده عملاق فى المحاماة وخيبة سياسية كبرى ! لأن السياسة علم يحتاج لتخصص . وله أقيسة ومثاقيل وأوزان كالميكانيكا أما أن يتصدى لها عباقرة العلم أو الفن كلما عنّ لهم الهوى ، أو سنحت سوانح الفراغ . كسهرة الساهر فى الأوبرا أو رحلة الراحل إلى أوروبا ، فذلك ليس السبيل القصد لإصلاح الشعب .

عرف أن فى جواره مسجداً يبنى بعزبة النخل فكان سباقا بما يرتجى عنده ، كمثل ما صنع فى مسجد الحلمية القريب من عين شمس .

فاذا استقصيت بره بعماله لما بدا لك عجبا أن تربطه بالسائق الذى علمه قيادة السيارة ، أواصر جد موثقة ، فلم تفجأه فاجئة بلاء فى حياة رجله . بل وهبه رقعة رحبة من ارض البناء إلى جانب السكة الحديد يربو ثمنها على الألفين من الجنيهات . ويبنى السائق لنفسه من عطفه داراً تبقى مثابة لصاحبه . ويبقى الطاهى الذى كان يطهى له حتى يطهى لبنيه ، وله كذلك قطعة أرض ودار .

فاذا تـكلم عن خدمه أسماهم (المستخدمين) وعاملهم كمستخدمين .

والميراث المخلف له من رهط الجوارى المعوزات لم يكن عبأ عليه ، بل كان بعض وسائل التسرية عنه. يزورهن زيارات منتظمة حتى لا تجحف الفاقة بهن ويؤتيهن ، حقوقهن ، لا منحة ممنوحة . ولكن فريضة مفروضة بانتظام ؛ وتقف سيارته حين يلتقى إحداهن فتروع فرقا من هيبته . فيطامن من خطوها باستخبارها أخبارها وأسعارها . ثم ينفلها جنيهات . ولا تكاد السيارة تستوى على الجادة حتى تنفك عنه مظاهر الحياء الذى أصابه من جراء الاضطراب الذى أصابها ، ثم تحل البهجة عليه فيأخذ بأطراف التندر والمداعبة .

كل ساعات فراغه مع أولاده وزوجه فى صحن الدار أو بساتينها أو فى مشارف القاهرة ، إلا ما يزجيه منهـــا فى السباحة مع الطيارين فى حوض ناديه .



فى حوض ناديه

وتعليم ولده مشغلة فؤاده ، يقرئهم القرآن بصوت مسموع فى خارج القاعة ويلقنهم دروسهم ويجالس أساتذتهم ، كأنهم أساتذته ، فيبهرهم بحيائه وأصالة آرائه .

* * *

وفى حين كان مظهره وقاراً كله ، كان فى دخيلة نفسه يهوى النكتة الوقور ويتعاطاها. وكأن ما ركب فيه من الدقة والعقل الهندسى والتعمق قد زين له طراز النكات العلمية أو الاجتماعية التى تقوم على مفارقات الناس . ولعل أبرز مظهر لهذه الفكرة عنده ، ما يروى عنه من مأثور عباراته ، بل على الأصح من بعض اتجاهاته .

كان له صديقان من الموظفين الفنيين فى إحدى الجهات القضائية هما : الأستاذ ن والأستاذ ج من أولاد الأثرياء ، استقال أحدهما إذ نقل إلى أسيوط فلما بلغه أمره عقب بقوله (الفلوس يا افندم) ، وبعد عامين استقال ثانيهما ولم يكد يسمع الخبر حتى علق نفس التعليق ـ كأنما هو جواب واحد عن سؤال واحد (طبعا طبعا الفلوس يا افندم) . وما قصد إلا عجز أبناء الأثرياء عن أن يلوا عملا مرهقاً .

وتحل النكتة الفرنسية التى كان يسيغها ويحسن اختراعها فلا يسكت عنها ، فيشير إلى الثروات الطارئة على معارفه من أثرياء الأمم التى يطير إليها ، من سائل الزيت الذى تفجرت فيها ينابيعه بقوله (أيوه يا افندم Argent liquide-Argent liquide) يقصد بذلك النقود السائبة أو السائلة كالزيت السائل .

ويرى السائحين من المطارات ينسلون فيضحك الله سنه ، وكم كان حسن المضحك ، ويقول Aux Pyramides - Aux Pyramides . . إلى الهرم إلى الهرم . ويترقى من الدعابة إلى الجد فيقول : « ألم يكفنا أن نعيش فى الماضى وعلى مخلفاته ؟ ألم يأن لنا أن يزور الزائرون معالم الحضارة الحديثة عندنا ، لقد أضحت آثار العصور الغابرة إعلانا ضدنا ، مذ كانت زيارة مصر القديمة وحدها برهان موت مصر المعاصرة » .

ويتساءل « لماذا لا يزورون الجامعات إلى جوار الجوامع . . . »

« ولمـاذا لا نبنى لهم معالم على روح العصر فى مصر ، حيث تتجمع من روافد التاريخ والجغرافيا وحضارة القرون ، ثقافة مصر الحية النابضة التى لا ينافسها فيها منافس » ؟

اشترى مرة إحدى السيارات من أمير يجاوره ، وأصابها العطب بعد شهور ، فراح يقلب الأمور للأمير ، ويتهكم على السيارة مشيراً إليها بقوله عنها L'Altesse Royale أى (صاحبة السمو الملـكى) ثم يقول (أول معاملة وآخر معاملة مع صاحب السمو)

وكانت تأخذ بمجامع قلبه مفارقات « نجيب الريحانى »فلا تراه يستغرق فى الضحك حتى تبدو نواجذه كمثل ما يضحك لدى « الريحانى » .

طالما ردد أضحوكة الريحانى عن الملف الحـكومى للموظف المنقول من امبابة إلى الجيزة إذ بقى يتردى فى الروتين الحـكومى حتى انتقل صاحبه ، لا من إمبابة إلى الجيزة ، ولـكن من الحيـــاة الدنيا إلى الحياة الآخرة .

وطالما ردد قوله عن أحد « الفشارين » إذ وصف أباه فى معرض المباهاة ـ وكان بائع « بليلة » ـ فقال عنه « تاجر غلال » ولما ذكره محدثه أنه يعرف أباه قال « تاجر غلال « مبلولة » يا أفندم » !

وإذا سمع فى الرادو وزيراً غير مبين قال كلمته الفاكهة المرحة عن « شاعر مجلس الأبحاث » فى إحدى رواياته وكان تأتاءاً فأفاءاً ، (دا فصيح بشكل) ! !

كانت تأسره دعابة ذلك الممثل لسبب يعرفه ولسبب لعله لم يكن يعرفه ، أما الأول فـكما كان يقول : إن الريحانى كان رساماً نابغاً لمتاعب أمتنا

وظلم البغاة لها ، فكانت الملهاة عنده مظهر المأساة ؛ وكانت الضحكات أو النكات ، صدى الصيحات ورجع المواجع .

بل إن الريحانى نفسه بدأ بتمثيل المأساة وانتهى إلى أن صبغ فنه « بالكوميديا » أو الملهاة .

كأن ذلك الممثل فى طربوشه المستكين على رأسه الهاجع ، وجسمه المنتفض ، وفؤاده الجسور ، وظروفه التى تعلمه الصبر ، وتعلله بالأمل ، وتسكب فيه المرح حتى يجىء أمر الله . هو المصرى فى صحيح شأنه كما يعيش فى الواقع . أو « المصرى أفندى » كما يرسم فى الصحف ... تمثالا لرجل لا يعرف الخضوع وإن كان يعرف المصابرة . يأخذ بها ظالمه ، فيحاربه بالنكتة وبالسخرية ، وبالتربص ، حتى يمكنه منه نصر الله .

أما السبب الثانى فذلك أن تعبيرات الريحانى كانت « مختصرة مركزة » ... فيها تعمق ورونق ، وقوة واعتدال ، وفحولة ويسر . وكان أحمد نفسه « تعبيراً مختصراً مركزاً » فكذلك كانت حياته وتعبيراته وما يهواه من تعبيرات عن الحياة .

وكان يكثر من دعوة ضيوفه إلى المسرح ليشاطروه استمتاعه فيسهرون ويسمرون ، غير أنه فى ذات مساء دعا سيدة من كبريات ربات البيوت المصرية ، وإذا الرواية تدور حول سيدة لا تلد ، زعمت لنفسها طفلا ليس من نفسها ، والضيفة سيدة لا تلد !

كانت ليلة ليلاء ... فبقى واجماً فى إحدى المقصورتين اللتين ضمتا مدعويه ، ووجد من ذلك وجداً شديداً ، واشمأز قلبه ومرضت نفسه ، فلم يغش المسرح قرابة عام .

أما أسباب متعته الأخرى فهى قراءاته ورحلاته ؛ يعود من الخارج بحمل كبير من المجلات والصحف والمؤلفات الميكانيكية ينكب عليها

انكباباً بين رحلة وأخرى . فكانت إلى جوار مكتبة أبيه والمساجلات والرحلات والتجارب ، مصادر غذائه العقلى .

* * *

كان له من المنطق المبسط والتعبير المركز أحكام نهائية يصدرها على الأشخاص والأشياء . خذ مثلا إحدى مقولاته فى إنجلترا (سمسار قديم يعيش من دماء الأمم) أو قوله فى الإنجليز (إنهم المرابى « شيلوك » الذى وصفه « شكسبير » وما وصف إلا أهله) . أو قوله عن تشرشل (عجوز يعيش فى غير عصره) . او قوله عن إيدن (إن الذى لا ينجح فى سياسة نفسه لا ينجح فى سياسة أمته)

أما المستر « أتلى » فأحد باعة المحال التجارية ، بشكله وعقله ، يبيع ويشترى فى « ١٠ داونتج ستريت » مقر مجلس الوزراء البريطانى » أو قوله عن المستر « بيفن » وهو محمول على محفة فى وزارة الخارجية المصرية ليلتى وزير خارجيتنا (يتاجرون حتى بالمرض)

ولما رحل رئيس الوزارة الإيرانية « مصدق » إلى أمريكا بعد أن ألغى اتفاقية الزيت البريطانية حمل فى سرير المرض بالطائرة وكانت نفقات رحلته من حسابه الخاص ، فوقعت الرحلة فى قلب الطيار المصرى كل موقع ، وراح يقطع بنجاحه ، وحجته فى ذلك أن «مصدقاً» يجب أن يسمى « مصدقاً » أى « صادقاً » فهو مذ طار على سرير المرض وعلى حساب نفسه ، قد أشهد نصف الكرة الغربى ، بل أشهد عليه ، أنه رجل ميت رحل إليهم ليموت عندهم ، لا أرب له فى عرض من أعراض الدنيا ، فلا قبل به للرشى أو للمناورات التى يبتدعها ساسة ذلك العالم .

وكثيراً ما كان يقول « إن شمس الحضارة ستشرق من الشرق مرة أخرى . وكما نجح « غاندى » ونجحت الهند ، بأسلحه الشرق من هدى

النفس ، سينجح « مصدق » وتنجح إيران . وعندما نجد مصرياً «كمصدق» سينجح ذلك المصرى وتنجح مصر » .

كانت نفس الدكتور طه حسين من أقرب الأنفس لذاته . فقرأ كتبه القصار جميعاً وقرأ بعضها مرات .

فلما ولى وزارة المعارف اعتبر ولايته آية النجح فى وزارة الوفد . ولما رآه يهدم ويبنى ويغير ويطور أخذته نشوة أمل . فغدا لا يصبر على قدح فيه فيقول « إن الذين يتهمونه بالثورة هم الثائرون على سنة التقدم ، وإن التوسع فى تعليم الشعب هو صيحة الحرب على العدو وصمام الأمن لأمتنا . فليت لمصر ثواراً مثله فى الاقتصاد وفى السياسة والاجتماع . فإنما منع ثورة سنة ١٩١٩ أن تحدث كل آثارها ، قيامها على السياسة وحدها دون الاقتصاد والاجتماع والتعليم . والنهضة كالطائرة يجب أن تصعد فى الأفق بجمعها لا بجناح واحد » .

ويتساءل « أليس أنجى لنا ولأولادنا بعدنا أن يعيشوا أقل سلطاناً ومالا ، بين مواطنين أحسن حالا ومآلا ، من أن يعيشوا أكثر سلطاناً ومالا ، فى أجواء غير ذات أمان ، تتخم فيها بطون قليلة فى حين تبيت البطون الأخرى طاوية خاوية ؟ » .

ويضرب لسامعيه مثلا أصحاب الطائرة المتواضعة تحلق فى أجواء مؤاتية وسماء صافية « أهم خير أم أصحاب الطائرة الجبارة استعلت فى الهواء وجابهتها كسف الثلج المتهاوية ، والزعازع والأنواء ، والأرزاء » ثم يقول :

« إن تقدم الأمة فى توازنها ، توازناً بين الحاكم والمحكوم ، وبين الغنى والفقر ، وبين الصناعة والزراعة والتجارة ، وبين التعليم الجامعى وبين جمهور الأمة ، وبين الناخبين والنــواب وغير هؤلاء جميعاً » .

ويقول تلك المقولة البارعة فى كثير من مجالس جداله « إن الدعامة الكبرى لغرس الوطنية فى الشعب هى أن يحب الكبار الوطن فى أشخاص الصغار بالتواصل العقلى والعملى ، وأن يحبه الصغار فى المثل العليا التى يضربها الكبار لهم بحسن صنيعهم وجليل مزاياهم وإلا . . . فلا يلومن الكبار إلا أنفسهم . »

ولما حان الوقت ليأخذ بنيه بأسباب الدرس ، أبى أن يعلمهم فى المدارس الأجنبية وأصر على أن يتعلموا فى المدارس المصرية ، لينشأوا النشأة الأولى بين نظرائهم وعشرائهم ، فى حين كان له عشرة من أولاد ذويه فى عهد الطلب فى مدارس فرنسا أو مدارس الجزويت والأمريكان بالقاهرة .

وعندما دخلت بنته مدرسة الليسيه . قال كالمعتذر للناس إنها بنت يريد لها ذلك المنهاج من الثقافة .

على هذا النحو من التفكير فى التعليم وفى التوازن الشعبى ، كان تفكيره الاجتماعى . فكم سمعت الحجارة فى شرفات داره آراءه عن وجوب توزيع ثروة الأسرة المالكة السابقة ومن يشبهها من الأثرياء بثمن معقول على زارعيها ، فاذا ووجه بأن مكانه وراء هذا الباب لو فتح ، تبسم ضاحكا وأجاب فى معرض الجد بالجد ، وفى معرض النكتة بأبرع نكتة ، فيقول حيناً « سأنفذ القانون » ويقول حيناً آخر « وهل أنا من الأثرياء » ؟ أو يشير بيده باسم الثغر إلى السماء ، حيث آفاق نشاطه وكسب حياته ، ويهمس فى أذن مجادله « وفى السماء رزقكم وما توعدون »

عرف أن زوجة أوربية لصديق فى السلك السياسى الأجنبى زارت أخت الصديق فى ضيعتها ورجعت تقول « مسكن كمساكن أمرائنا ولكن فى أى وسط ! ليت القصر كان أدنى جلالا ، وليت مساكن فلاحيه كانت

أحسن حالا ! ، فانطلق يردد الواقعة ويقول ، لقد وجدت المسألة J'ai trouvé la formule فهذا هو التعبير الصحيح عن مشكلتنا . إن على كل منا أن يصلح فى محيطة ما استطاع حتى لا يكون الثراء أو العلم أو الرقى شذوذاً يهوى فى أعماق المحيط ،

ولم يك قال ذلك إلا بعد أن عمل ما استطاع ... من مشاركة لتابعيه ولأصدقائه وعملائه . فى كل ثمرات ثرائه . على أساس الفلسفة التى كان يعبر عنها إذ ينفل عماله أشياءه أو يجامل مستأجريه ، إن ذلك هو المصلحة والوزن الصحيح للأمور ، لا فروسية فيه ولا وثبات خيال ولا استعلاء ، ولا سخاء . لكنه أساس إنسانى لتوثيق علاقاتنا معهم وضمان حقوقنا عندهم ، بدعم أوضاعهم التى ألفوها فى حياتهم الخاصة وحياة أسراتهم ، وهم يعبرون عن ذلك بفتح بيوتهم ، ونحن - فى الحق - نفيدهم لنستفيد وإياهم على أساس إنسانى ،

ومن أقواله السائرة التى كنت تسمعها فى مواسم الإيراد فى مجالس أسرته ، إن مائة جنيه فى جيب ، فلان ، ستصرف فى الأوبرا أو السينما أو عند حانك الثياب ، لكنها عند ، فلان ، طعام وتعليم أولاد - والمفاضلة ظاهرة ،

وكم فى قريته دور يملكها تركها لذوى القرابات من المستحقين .

وفى حين كان المحيطون به ينحون عليه باللائمة لانصرافه عن مصالحه المادية والمالية إلى هواية الطيران ، ذكره مذكر بمزرعة يملكها فى بندر بنى سويف من أرض المساكن تزيد على الخمسين ألفاً من الثمن ، لو زرعها موزاً لوسعت جهده ، ولأغلت فى العام الواحد ربع ثمنها ، فلم يلق صغوه إلى القائل . بل راح يطير ويطير .

وقيل له إنه يستطيع أن يخطط مشروع مدينة جديدة بتمامها فى أرضه فى نحو مائة ألف متر على جانبى السكة الحديدية ، والشارع الرئيسى بعين شمس ، أحاطت المساكن بجهاتها الأربع ، ولم يبق سواها أرض للبناء ، فلم يلق باله إلى القائل . وأقبل على هوايته الكبرى فزاد طيرانه .

ولما أعلنت الحكومة عن كهربة خط سكة حديد عين شمس ، وهى تجرى بين شطرين من أملاكه ، كان حديث ذلك فى خلال معركة القتال . فلم تظهر عليه نشوة الذى زاد رأس ماله مائتى ألف من الجنيهات أو ثلثمائة ألف . وداعبه محدث ذات يوم بأن أذنه لا يقرعها رنين الذهب ، فتبسم ضاحكا من قوله وأجاب « ليس لى أذن موسيقية »



الباب الثاني

الانجليز دائما



ولد احمد عصمت فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ فهو من أبناء مصر الحديثة التى رأت النور فى آفاق سنة ١٩١٩ ، ورضعت لبان النهضة التى تعهدها « مصطفى كامل » و « محمد فريد » فى فاتحة القرن . وكان لزاماً لها عامل الضغط الداخلى فى الحرب العالمية الأولى ، يصطدم بالعدوان الخارجى ، لتشتعل النار ويحدث الانفجار ، فيذكر العالم بنا ، ويذكرنا بأنفسنا .

ولم تكن السنون تتقدم بطائفة من الشباب فى تلك الفترة من التاريخ إلا استفحلت بغضاؤها لهؤلاء الباغين على أمتنا . الغاصبين لحريتنا .

كانت عقول الناشئة تعيش على تاريخ رسمى مكذوب ، وتاريخ صحيح غير مكتوب .

أما التاريخ الأول فكان ، وما يزال ، دسيساً إلينا من الاحتلال . محصله أن القومية المصرية محل جدل ! وأكذوبة أخرى ، من خبل القصر وزلفى عبيده ، فحواها أن مصر ليست هبة النيل كما قال « هيرودوت » من ألفى عام ، ولكنها هبة الولاة من عهد « محمد على » !

وسقط فى أيدى الأحزاب والحكومات . فلم تستطع أن تقهر القصر أو تصحح التاريخ . وعجزت البرلمانات العشرة ـ إلا برلمان الائتلاف فى سنة ١٩٢٦ ـ عن أن تنتصب نداً الملك !

وأما التاريخ الثانى عن مجد مصر ، وقوة مصر ، وخيانات من خانوها مع العدو ، فكان يعلم بعضه من يقرؤون المؤلفات الأجنبية ، أما الآخرون فقد علمتهم ثورة سنة ١٩١٩ أن يظهروا عليه بقلوبهم ، إذا لم تطلع عليه أعينهم .

لم تكد أصوات مصر تدوى فى سنة ١٩١٩ حتى تناهت إلى « الوفد المصرى » مقاليد قيادتها ؛ ولم يلبث الوفد يسيراً حتى انتثر أفراداً . فألف « الأحرار الدستوريون » حزبهم لاستصدار الدستور ، وافتراص الفرص لمصلحة مصر عند الإنجليز . وكان ذلك فقه « النظام البرلمانى » الذى صنع على أعينهم ؛ لكن « سعد زغلول » انتزع منهم الإجماع البرلمانى باسم الشعب فى قوة واقتدار ، ولم يكد يجلس على رأس النظام حتى أوهى العبء جلده ، فلجأ إلى ائتلاف معهم انفض بعد مماته .

وخاصم الملكان فؤاد وفاروق الدستور منذ صدر ! واصطنعت أحزاب ، واخترعت أحزاب . ووالى الملك شيعا دون شيع . وبث عيونه وأعوانه فى كل مكان . وأقصى الأحرار من جميع الجهات عن المراكز الأولى . فلما سيطر على القوى الحزبية أمسك الحركة الشعبية من مفرقها ، وصار حكما بين الأحزاب . فكان النشاط الحزبى دوراناً فى حلقة مفرغة . وكان التقدم الشعبى سراباً .

وفسدت أداة الحكم نتيجة للفساد السياسى ثم صارت سببا لاستمراره ، وعريت جلود الملايين ، وخويت بطون الملايين ، لحساب بضعة رؤوس فى مشيخة النظام وبضع مئات تجرى فى ذلك الفلك .

فأى ضغط كانت ترزح تحته أعصاب الشباب فى ذلك الزمان .

فى أخريات هذه الأيام بلغ أحمد عصمت مبلغ الرجال ، وكان الزعماء قد حشروا مسحورين إلى مركز الثقل فى الامبراطورية البريطانية ، مبهورى الأنفاس من قعقعة السلاح ومظاهرات الغواصات خافية بادية فى قناة السويس ، ومن المؤتمرات التى تعقد تحت نذر الحرب الحبشية أو الحرب العالمية الثانية .

ومد لهم غصن الزيتون تحت عنوان إلغاء الامتيازات الأجنبية التى جعلت منذ تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ مفتاحا تفتح به مغاليق الشر على مصر . . . فوقعوا معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تكد تتجرم أربع حجج على توقيع المعاهدة حتى بلغ فتانا من الرشد ما أذن له باقتعاد مقعده فى مجالس كبار الرجال ، كأمل لأسرته وجماعته ، شديد النقمة على الطاغين ، شديد التوقان إلى المزيد من الحرية ، يصدف بطبعه عن العمل الرتيب حيث لا تتجلى وثبات الفكر القادر أو العزم القاهر . فآثر التحليق فى طبقات السماء العالية .

وفى سنة ١٩٣٩ كنا فى حالة حرب ، لم نكن من جناتها ـ علم الله ـ ولكننا صلينا بنارها ، وأخذ الهم بخناق كل مصرى بما ضيق الإنجليز علينا توسعة لأنفسهم . مذ كانت خطة الخطط لديهم أن يحاربوا بجنود غير جنودهم ، وأن يخوضوا المعارك فى غير ديارهم .

وغزيت مصر من أجلهم مراراً . فكانت كل غزاة لها كجراحات الرماح للضمير المصرى . وأخذ الشباب المصرى يتناجى بتصفية حسابه مع الإنجليز وإن لم يكن يملكه أن يصفيه ، إذ كانت تحتل كل مكان من أرض الوطن فيالق إنجليزية مخلطة تخليط الامبراطورية المترامية الأطراف والأعضاء ، فكان الأمر غمة وكان ملتبسا .

كنت تسمع الجدل فى كل مكان بين الداعين بالنصر لأعداء الإنجليز وبين الفريق الآخر من الوطنيين .

أما الأولون فراعتهم بوادر ظفر الأسلحة الألمانية ، فى حين كانت الجيوش الإنجليزية ـ فى فاتحة الحرب ـ تتصدع وتتراجع وتنهار .

وأما الفريق الآخر فكان يرجىء حكمه حتى تكشف أمريكا عن سياستها ، فتنضم ، أو تحجم عن الانضمام ، إلى الإنجليز .

كانوا يرون الحرب فى الواقع جلاداً بين حضارتين هما الحضارة الألمانية والحضارة الإنجليزية الأمريكية . وأن أمريكا ستخترط السيف ، يقيناً ، للدفاع عن حضارتها .

ويرون القضية قضية بين القارات ؛ بل بين عالم وعالم ؛ وفى أمثال هذه القضايا يسمع صوت الغريزة لا صوت الأرقام وحده ؛ بل الأمر أمر الحضارة المعاصرة ومصايرها لم يحن بعد حينها ، كما كانت تنبئهم مشاعرهم ، ولأمريكا الكلمة العليا إذا مدت يدها ...وإن أمام الحضارة الأمريكية لسبحاً طويلا ...

وكان فتانا من الرأى الثانى يرجح ظفر الإنجليز ويتمناه .

« فان جولتنا مع الإنجليز قصيرة ـ على ما كان يقول ـ والظفر فيها مأمول ومعقول ، لأننا جاوزنا أكثر المدى معهم ، أما مع الألمان أو الطليان فسنكون فى بداية شوط جديد . . . . مديد »

كان يأمل الخير فى أمريكا . ويردد أن أساتذته فى الجامعة الأمريكية لم يكونوا يفهمون المصريين فاذا فهموهم عشقوهم أو كادوا يعشقونهم .

ويقول : « لو فهمنا الأمريكان لكنا فى الشرق رسول السلام للحضارة الغربية ـ فتلك وظيفة مصر ، لموقعها من الأرض ، وسابقتها فى الحضارة ،

وقوتها عدة وعدداً . وهى بهذا أجدى فى الشرق من الإنجليز فى الغرب حيث لا أحد يأمن للإنجليز فى أوروبا » .

انطلق الأنجليز يجيعون مصر ويدئبونها ، ويقتطعون أقواتها ، بل يجورون على نقدها بمقتضى اتفاقية فرضوها عليها فى الحرب العالمية الأولى ، فانتكست ميزانيتها من جرائها وما تزال فى انتكاس .

وأظلمت القاهرة واقشعر كل بلد غير القاهرة ، وكان نعيق الصفارات يملأ الآفاق ليل نهار نذيراً بالهلكة والدمار . وحشر المواطنون زمراً كالنمل إلى مساكنهم التى لا تسعهم ، والخنادق التى خندقوها عليهم . وبلغ السيل الزبى ، أن غلبت القوات الإنجليزية على الأحياء الوطنية حيث بيوت الله ، فزاحموا المصريين هنالك فى أموالهم ومساكنهم . واستفحل الغلاء بما أدخلوه فى النقد من نقودهم ، ومدوا لعملائهم من غير المصريين أسباب الثراء ، فراحوا يثرون ويمنعون عنا الماعون ، ويتجرون فى دخائر الحرب وينتهبون أموالنا بطريقة أو بأخرى .

وكانت عين شمس كعبة القصاد فى هذه التجارة الحرام ، تكتنفها المطارات والمعسكرات ، وفى تخومها طرائق القنال . تجرى كشرايين الحياة ، إلى قواعد العدو ومستودعات معداته .

كم من رذيلة شهدها الذين خالطوا جند العدو فى ذلك الزمان : من قتل أو سطو إلى خيانة أمانة إلى تجارة مخدرات إلى تجارة أسلحة إلى تجارة أعراض !

ومن أسلحة ألمانية أو إنجليزية أو إيطالية أو أمريكية ، إلى محركات طائرات أو ملابس أو طعام أو مخابير علمية أو ما عدا ذلك . حتى الصناديق التى تحوى جثث القواد المحنطة ... كانت تباع جزافاً .

وقريباً من عين شمس هجمت مواقع جل سكانها من الأجانب سيقوا

إلى معسكرات الاعتقال ، وخلفوا نساءهم مسرحات . فكان الجند البريطانى يفد عليها فى الليل والنهار مخموراً ، مزخرفا ، مزيفا ، لا أثارة عنده من خجل أو حياء .

وكان مقام أحمد عصمت فى عين شمس ، فكان الفساد الإنجليزى مشغلة نفسه ، وكأنما كانت الكلمات من فيه قطرات سخط منصهر ، أو دموعاً تتحدر .

وفى ٤ من فبراير سنة ١٩٤٢ اقتحمت دبابات الإنجليز أبواب قصر الملك ، وصعد الضباط البريطانيون درجاته يستبدلون وزارة أحوجتهم إليها محنتهم . بوزارة فى دست الحكم لم يعودوا بحاجة إليها .

وصحت مصر على أمر مريج .

كانت تشم رائحة الدم وفيح جهنم ، فالأفواه ملثمة ، والأقلام محطمة ، وعلى كل أداة من أدوات الخطابة أو الكتابة أو الهمس رقيب عتيد . لكن أنباء « ٤ من فبراير » ذاعت كما يشيع اللهب ، فهاج ضمير الشعب ، وإن أفلح فى درء العواقب قيام الأغلبية الشعبية فى الحكم .

وأقيلت حكومة الوفد فى خريف سنة ١٩٤٤ على عادتها ، وعادة القصر معها ، تقال ولا تستقيل .

وعينت حكومة ائتلاف بين أحزاب الأقلية كانت فى الواقع حكومة القصر . وأجريت انتخابات أنتجت أغلبية برلمانية للأقلية الشعبية .

* * *

وسكت قصف المدافع . وكانت مئات الآلاف من الشباب والخبراء والعلماء والرؤساء قد أجاءتهم إلى مصر صيحة الحرب ، ليتوافقوا فيها أو ليرحلوا منها ، وكان موقف مصر من المختصمين وجيها عند كل منهما ...

مذ وفت بعهدها لمن عاهدوها ، ولم ينقم الآخرون عليها مسلكها ؛ فكان لنا فى كل قلب مكان . وكان لنا الملايين من ألسنة الصدق فى القارات الخمس ، تشيد بمزايا مصر الجغرافية وموقعها الحربى وكمال مسلكها وفيض أنعمها .

وزاد فضلنا على العالم الغربى أن كنا نقطة التحول فى تاريخ الحرب فى موقعة (العلمين) ، فكان اسم مصر اسم الخير ، والجمال الطبيعى ، والفراعنة ... والانتصار .

ومن الناحية الأخرى سجلت مصر السياسية لنفسها تقدماً بالمواثيق العالمية التى تعاهدت عليها الدول فى إبان الحرب ، ولم يعد يسوغ فى فقهها تعاقد الدول المحتلة مع الدول التى تحتلها .فأصيبت معاهدةسنة١٩٣٦ إصابة مباشرة .

ولم يكن ينقص مصر للنصر إلا خطة سياسية مثلى ...

لكن الذى وقع نقيض ما كان يتوقع ، فاذا بشياطين الشر المسلطة عليها تشعل فيها حرباً أهلية ، بل وحرباً خارجية ، لتصرفها عن غايتها وتصدها عن قبلتها .

ووقفت مصر وحدها ضد كثرة الأمم ، على يد حكومة تقف وحدها ضد كثرة الامة . . . ! ويمسك سكان سفينتها فى محيط السياسة العالمية ، أصابع الانجليز فى قصر الملك !

وبدأنا معركتنا السياسية مع الإنجليز منهزمين !

نشبت الحرب الأهلية بين الكثرة الشعبية والحكومة ، فلم يتأثر أحمد عصمت بخلافات الأحزاب . حتى إذا قتل رئيس الوزارة الدكتور أحمد ماهر باشا أمضه الأسى فكان يرى فى مقتله « خسارة رجل شجاع » .

وكم كان يحتد ويشتد فى دفاعه عن أحمد ماهر ! وما أروع جداله فى ذلك مع المرحوم « محمد شكرى كيرشاه » .

كان شكرى فى طليعة شباب الحزب الوطنى وكبار الوطنيين، من أخطب خطباء الشعب فى الأزهر سنة ١٩١٩ وفى مجامع حزبه ، أب الأحزاب . فكان له أن يأمل فى صفوفه مكانا أول ، لكن الصدارة كتبت له فى ميدان الاضطهاد ، فصار غرضاً للبوليس السياسى ، وأقصى عن الصفوف الأولى ، ومرض ، فضاق صدره وانطلق لسانه ، فترك المحاماة إلى القضاء ... حيث كان يقول « اللهم إنى أعبدك بقضائى » .

وكان فى مطالع العقد الخامس من العمر عندما طرق أحمد أبواب عقده الثالث ، فلما توثقت بينهما عرى الصداقة كانت إجازاته فى تسع سنين زيارات متواصلة لعين شمس يسميها « الجنة » بدلا من « الجنينة » . ولم يرحل أحمد إلى مزارعه فى « بنى سويف » أو « ببا » إلا قصـــد إليه فى جلساته ، فانسحبت للقائه هيئة المحكمة .

كنت تسمع أحمد يقول له « إن السعادة كالعطر لا يصل إلى حواس الغير إلا إذا عطر اليد التى تفرقه فى الناس » فيقول له فى بديهة موانية : [ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « اسمح يسمح لك »] ويقول أحمد «إن السعادة رقم حسابى عجيب ، إذا أردت أن تضاعفه فقسمه ! » ويقول شكرى [كلما تملكت أشياء أكثر ملكتك أشياء أكثر]

وكم كان فى أموال شكرى من حقوق للسائل والمحروم ، وللمجاهد المهضوم !

وذات صباح دخل أحمد قاعة القاضى فى محكمة « ببا » ، ودخل محام كان وزيراً وكان باشا . فكبكبه القاضى ودهوره ، فلما رجع القاضى وصديقه إلى شاطىء النيل فى بنى سويف ، تجاريا يتناقشان فى عنف

القاضى مع المحامى . وكانت حجة شكرى أن المحامى حسب نفسه وزيراً وهو بين يدى القضاء . والناس بين يدى القضاء سواء .

كان يقول لشكرى : « إن ديلسبس بفصله بين القارتين ، يوم حفر قناة السويس ، قد جمع العالمين الغربى والشرقى لحضارتنا شرقية غربية » ؛ ويقول له شكرى : « لا بل مصرية إسلامية » ويردد بالإنجليزية قول شاعر الإمبراطورية « كبلنج » (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) « ويوم نعامل الغرب على استغناء ، سينشد عندنا صداقة الأنداد والأعدال » .

ويطيب الجدال فى أحمد ماهر لأن أحمد يعرف أن قاتله (عيسوى) كان من المعجبين الكثيرين بشكرى .

وكثيراً ما ينتهى الرجلان إلى تأجيل بحث قضية ... لأن فى نفس أحمد بقية ... فقليلون كانوا يثبتون لجدال « شكرى كيرشاه » .

ولى النقراشى الحكم بعد أحمد ماهر ثم تركه لإسماعيل صـــدقى . فتفاوض صدقى مع الإنجليز فى سنة ١٩٤٦ ، ولم يكن أحمد ينسى « لصدقى » أن راحتيه لوثتا بدم الدستور فى سنة ١٩٣٠ .

وحبطت المفاوضات وعاد النقراشى لرياسة الوزارة .فرحل إلى مجلس الأمن فى « ليكسكسيس » لعرض القضية المصرية . ولم يكن أحمد يرتجى خيراً من رحلته ، ومع ذلك شهده الناس يسهر إلى ما بعد منتصف الليل ، لتلقى إليه الإذاعة المصرية السمع عن نتائج الجلسات فى مجلس الأمن .

فلما قتل النقراشى حزنه قتله فكان يقول : « رجل مستقيم فقدناه » فى هذه الأثناء بلغ فساد الحكم أبعد أغواره ، وقذف الملك بنفسه فى لجته، وراحت الأقلية الحاكمة تمكن لسلطانها فى الشعب بالبطش فتبادل الجانبان الهجوم والدفاع ...! وعمت موجة الإرهاب والاعتقال وتكميم الصحف

ووقعت جرائم شتى . منها محاولات الاعتداء على الرئيس السابق مصطفى النحاس . فكان أحمد يعنى بدراسة طريقة الاعتداء ووسائل المعتدين ، وانتهى إلى رأى لم يتحلحل عنه وهو « أن هذه الاعتداءات المتوالية ليست من الأحزاب وإنما هي اعتداءات خبراء فى استعمال السلاح مطمئنين إلى تأييد قوة مسيطرة ، مستمرة ، يظاهرها القصر » .

ولم يكن أقطع ولا أشق عليه من قتل رئيس محكمة الجنايات « المرحوم الخازندار بك » فى طريقه إلى محراب العدالة فى ضحوة النهار فى حلوان . فكان يقول « الناس يقتلون قاضيهم » ! ! وقتل حكمدار العاصمة ، ثم قتل زعيم الإخوان المسلمين المرحوم « الشيخ حسن البنا » . وكان من أقرباء أحمد عصمت ورفقته كثير من الإخوان أضناه حبسهم والسعى لهم . وأخذ الضيق منه كل مأخذ وكان يظن أن قتلته هم الذين شرعوا فى قتل الرئيس السابق مصطفى النحاس ، فكان يتندر على نظام الحكم بقوله « لقد صرنا فى أمريكا الجنوبية حيث قال القسيس لأحد الدكتاتوريين وهو على عتبات القبر يابنى سامح أعداءك فاجاب :

يا أبت ليس لى أعداء .

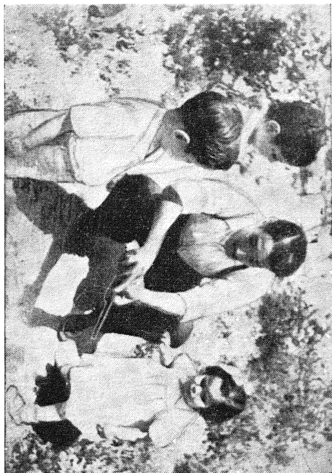
قال القسيس كيف ؟

قال : « لقد قتلتهم جميعاً ... » ! !

* * *

ولما جاء دور الحرب الخارجية فى فلسطين اشتمله الانبعاث الوطنى . واحتمله عاملان آخران فى خصوصية شخصه ؛ أولهما حق الجار والعشير ممن يمتون إلى فلسطين بسبب ، وكم كان فيه لجيرانه ؛ وثانيهما اقتداره على ما يرجى لديه من الفضل . فقليلون كانوا كمثله علماً بشئون السلاح ، وقدرة على الحصول عليه ، فجاد الفتى الجواد بجهوده ؛ وأهمته هموم فلسطين ، فكان ـ وهو الذى يأوى إلى فراشه فى التاسعة مساء

ليطير عندما يتنفس الصباح-يتلبث حتى آخر الليل فى انتظار البلاغات الرسمية.
فإذا لم ترقه الأخبار سىء بها وضاق ذرعا ، وبات بشر ليلة بات بها رجل.
فإذا أطربته أذاعها فى بنيه وهو يلقى عليهم « دروس ضرب النار »



« دروس ضرب النار »

وكانت الفتاة لا تقوى على متابعة ضرب النار أو فهم الأخبار ،
ومع ذلك لا تدع المحاضرات تفوتها، وأما الولدان فكانا فى ثياب الرياضة
أو ثياب رعاة البقر ، ينافسان أباهما فى حماسه ، تلميذين نابهين فى دروسه ،

يدركان من أنواع السلاح وأسمائه فوق ما يدركه أبناء « الذوات » من أسماء السيارات والروايات والمسارح .

وشغفه الشهيد الطيار « عبد الحميد أبو زيد » حبا فكان موضوعا مستمراً لهذه المحاضرات ، لكثرة ما ألقى على مواقع العدو ، ودمر من طائراته ، فلما احتواه اليم احتواه هو الألم ، وكأنما فقد فيه بعض ذاته ، وفقد الصغار فيه رجل الأساطير .

وبدأ يهزه الاحساس العنيف الذى هز غلاة الوطنية فى ذلك الحين : أن الانجليز قد خدعوا مصر .

ولو قدر لك أن تشهد فى بساتينه أيامئذ بعض مجالسه وصحبه ، لرأيت مبلغ ما يرتفع مد الوطنية ، ويتسع مدى التضحية ، لدى المصرى الكبير إذ يهب نفسه لقضية بلاده .

كنت تسمعهم يقولون وكأنما يبكون « إننا كنا على أبواب تل أبيب وكانت الألوية المصرية ترفرف على بطاح فلسطين وسهولها ، فنكستها السياسة البريطانية كما صنعت من قبل قريبا من هذه البقاع نفسها ، يوم اجتاحت جيوش مصر الجيوش التركية فى سوريا ولبنان وآسيا الصغرى وراحت تدق أبواب القسطنطينية ، فردتها المناورات الانجليزية الخفية والعلنية ، لأنها لا تطيق قيام دولة قوية ذات أسطول فى شرق البحر ، كانت وما تزال جسر الحضارة إلى نصف كرة الأرض ؛ ولن يصلح لانجلترا بال إلا إذا لم يصلح لمصر بال ؛ وكلما سبقت أمة إلى الحرب ، ظفرت إنجلترا بنصيب الأسد ، وإن لم تخض معركة » .

ويعود أحمد بسامعيه إلى منطقته الخاصة ، وهى بطولة الجندى المصرى فى السودان فيقول : ألم تنشر جيوش «عبد القادر حلمى» السلام فى النيلين الأبيض والأزرق ؟ ولكنه مع ذلك سحب من السودان كيلا يستتب السلام فى السودان ، وكى ينسحب الجيش المصرى من السودان المصرى؟

ألم تـكن دعوات المهدى وأتباعه عقب كل صلاة « يارب ياقادر : اكفنا عبد القادر ! فـكفاهم الإنجليز عبد القادر » !

ثم يقول « تلك هى السياسة الانجليزية فى مصر ، وستظل على ذلك أبداً ... » .

وطفق ينعى على السياسة المصرية خيبتها وورطتها ، وكم سمع أيامئذ يقول « إن إنجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة .. وقد عرف اليهود كيف يجلونها عن فلسطين بالضربات المباشرة . . بالقتل ، ومعاملتها بالمثل ، عين بعين وسن بسن ، وأسير بأسير . ولم تظفر مصر منها بحق مغتصب ، أو بتسريح زعيم معتقل ، إلا بالضربات المباشرة . ولن تظفر منها بشىء إلا بذات الوسائل أو فى نفس الظروف » .

ويقول دون أن يقبل جدلا وكأنما يصدر حكما نهائيا « لقد كسبنا حرب فلسطين ولو خسرناها ، فإنها البشير بانهيار الاستعمار ، لأن بسالة المصريين ، وبخاصة ضباط الحملة ، قد أثبتت مقدرة الجندى المصرى الحديث على خوض المعارك والجود بروحه فى نبالة واعتزاز » .

ويقول « إن الإنجليز بعد أن تيقنوا من ميلاد هذه الروح العالية فينا سيدركون أن يومهم قد حل . وسيعملون كعادتهم على أن يولونا أدبارهم دون قتال »

ثم يتساءل « ألسنا على عهد معهم أن يحاربوا عدونا فكيف يخذلوننا ويمكنونه من تطويقنا ؟ »

وأعلن سخطه على الأحزاب التى فى الحـكم من أجل سياستها فى أثناء الحرب ، والأحزاب التى فى خارج الحـكم من أجل توقيع المعاهدة .

قيل له يوما إن صدقى عارض تلك الحرب فى الجلسات السرية للبرلمان ، فاكفهر وجهه وقال « لو كان فى الحـكم لأعلنها »

وفى ختام سنة ١٩٤٨ ، عام فلسطين ، مات « محمد شكرى كرشاه » فى

جراحة أجريت له ، فطار أحمد إلى الاسكندرية لتشييع جنازته ، وكان يقود بنفسه الطائرة فى شجاعة المقتدر على التحكم فى أعصابه مع هول مصابه .

* * *

استبدت شياطين الفساد بأداة الحكم بعد حرب فلسطين ، كما سبقت لها الفتكة البكر على يد القصر . وتهافت الحكام على مرضاته ، وانشغال الحكومات بالدفاع عن نفسها ، وتنفيذ أوامر الملك وكوكبة الحكام من عبيده ، فنشبت على أيديهم معارك الثراء العريض المستفيض وابتداع التقاليد لتعطيل الدستور ، وحتى الوزراء قاماتهم المديدة يقبلون راحة رجل ، هو الملك ، وصور الكبراء بين يديه ، جثيا أو شبه جاثين ! . فكانت لطمات على وجوه الشعب جميعا !

وكان الراديو المصرى يكاد يسبح بحمده ! بل يتغنى بجمال قامته وبهاء طلعته ! فكان فى كل المسامع وقرآ وسميت كثرة المؤسسات باسمه والتمست الشركات التجارية أعضاءها عنده ، واستشرى فساد الحاشية واستسلام الحكام ،ودنا شبح الإفلاس الحكومى، وانداحت موجة السفك والفتك ، فلم تكن الحكومة من الشعب كقائد الجند بل كانت كصائد الصيد ، تخاف المحكومين والمحكومون منها أخوف ، وتبادل الطرفان أزمة ثقة ليس لها من كاشف .

وأمست حكومة مصر كحكومة الصين يوم وقف « كونفشيوس » وتلاميذه على امرأة تنتحب فى قمة الجبل ، فلما سئلت ما خطبها أجابت : « فى هذا القبر يثوى جد لولدى قد افترسه نمر ، وفيه جثمان زوجى قد غاله نمر آخر ، ولقد واريت فيه الآن ولدى فريسة نمر جديد » قيل : فلماذا لا تبرحين هذه المسبعة ؟ فأجابت لأن « حكومة الصين الظالمة لا تصل إليها » ،

قال كونفشيوس : تذكروا أن الحكومة الظالمة أفتك من النمور .

وازداد أحمد نضجاً ووقاراً وعلمته الأسفار أن يذيب ذاته فى ذات بلاده . والمصرى فى أسفاره هو مصر ذاتها ، كأنما العلم المصرى فوق المعارج ، جواز سفر المصرى فى الخارج ، بعثت فيه مصر كلمتها إلى الأمم الأخرى على صورة رجل ، يتلقى من الحفاوة باسمها ما لا يخطر على بال من لم يرتحل ، وكلما أوغل فى حدود الدول ، عرفه ما تكابده فيض الخير فى أرض مصر ، من شبع ورى وجمال طبيعى وسلام ومحبة ، فشغف بها حباً ، لا تعصباً ، وكلما غادر ورجع استفاض إيمانه وزاد بتكراره .

تملك أحمد عصمت بعد حرب فلسطين التعصب لكل ما هو مصرى ، فهجو حانكه الأجنبى وانصرف عن المحال الأجنبية والصحف الأجنبية المحلية ، وأحس أحاسيس جماعة من بنى الوطن فى الأمم الكبرى هم بناة مجده وأساة جراحه ، تهمهم همومه ، وتؤرقهم مطامعه ، وهم فى الكثرة الغالبة فروع الوطنية المتأصلة فى قديم تاريخه . تسيطر عليهم تلك الثقافة التى يرث بعضها أسباط الأسر الكبيرة الذين خلقوا ليلوا أعمالا كبيرة ، وكانت تربيتهم وليدة مجتمعهم والدم الذى ينحدر فى أصلابهم . والتاريخ العائلى الذى يلقنونه . فيكسب الفتى منهم وقارة حدثا وتوهب له من السماء مواهب القواد والرؤساء .

وتخلق المسئولية التى يندبون لها أنفسهم ، السلطة لهم على ما يحيط بهم مثلما تخلق السلطة التى يسلم بها لهم ، مسئوليتهم أمام أنفسهم وأمام بنى وطنهم ، عن إسعاد شعبهم .

وكان فى هذا الطراز من الرجال جماع المزايا فى المجتمع العربى والاسلامى حيث حمل سادات القبائل تبعاتهم فى إصلاح المجتمع ورعاية بطونه وقيادة جيوشه .

انشغل أحد فى تلك الفترة بالشئون العامة لأمته كل الانشغال وكان يصعد درجات السابعة والعشرين إلى ما تلاها ، فلم يكف عن التصدى لكل أمر جامع ، دون تحسر على ما مضى ولا جدع فيمن هفا ، بل كا كان يقول دائماً « بإبداء آراء إنشائية » .

وهو مقل منصف ، لا يأكل لحم الناس ، عليم بأن العبقرية نفسها لا تعدم قوما ، كذئاب الليل كلما أوريت النار ، تقعى على مبعدة منها فى كل طريق ومرقب .

والنقد يسير والعمل عسير ، ولخير لك أن تثقب شعلة متهافتة من أن تلعن الظلمات .

وأضافت رحلاته إلى آرائه الوطنية معارف ضافية عن البلاد العربية ، فكان يعرف من هواهم معنا ومن يظنون الظنون بنا ويقلبون الأمور لنا . فأصبح وأمسى يقول « يجب أن نعول على أنفسنا ... » ويقول « لقد أثبت الجندى المصرى جدارته وضراوته من عهد « تحتمس » و « رمسيس » و « صلاح الدين » ورددنا التتار والصليبيين وحدنا فى الشرق والشمال ، فيجب أن نبنى سياستنا الخارجية على أساس مستقل . والويل لمن لم تعظه عبر التاريخ » .

استقالت الوزارة ذات الأكثرية البرلمانية ، ووليت الحكم وزارة ائتلافية ، فأخرى مستقلة لإجراء انتخابات ، وأحس المصريون أن ضمير الغيب قد أجن لمصر أحداثاً جدداً ، وتساءلوا ماذا فى ضمير الغد ؟

وكان النسر المصرى أكثر رحلة إلى الخارج منه فى أى وقت مضى ، وكأنما كان فى حاجة إلى الراحة من طول ما كد نفسه فى السنوات المنصرمة على قصرها ، بالزواج والانجاب وغرس البساتين ، إلى البناء ، إلى تعلم الطيران ، إلى المشاركة فى أعمال التطوع ، إلى الاهتمام اليومى ، الفكرى والفعلى ،



بآمال وطنه وآلام مواطنيه .

وأى جهد كان ذلك الجهد فى بضع سنين .

لكنك إذا استعرضت تلك الجهـــود وحوادث الطيران ، وطراز نشأته وثقافاته ، تجلى لك وراء شخصيته أمران جامعان ، كأنهما نهران يرويان شجرة البطولة النامية ، فسيطرا على ملكاته وتصرفاته طول حياته .

كان الأمر الأول، فيما يتعلق بمصر ، أسرته الكبرى ، اتجاها بحسب طباعه ، إلى أعلى ، وفى خط مستقيم ، إلى العدو الحقيقى وهو الإنجليز . وفيما يتعلق بأسرته الصغرى . كان اقتداراً على تنفيذ المشروعات الكبيرة .

أما الأمر الثانى ، فهو الدقة الهندسية عند التنفيذ ، فى اتزان لا يطيش به حكم ، ولا يخطىء فى قياس المسافات عندما يكون الخطأ مفظعاً فى الهنات . فاذا جد الجد أدى واجبه فى الأرض أو فى السماء أبرع أداء ، وتصرف التصرف الواجب ـ كائناً ما هو كائن ـ دون أن يحفل بحياته ... وكانت توهب له الحياة .

وما يوم ١٤ من يناير سنة ١٩٥٢ إلا يوم اجتمع الأمران ، وصب النهران كل ما يحتويان ، فى لحظات حاسمة .

الكتاب الثالث

الثورة الدستورية



ان من يتسامح فى حقوق بلاده ، ولو مرة واحدة ، يبقى أبد الدهر ، مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

مصطفى كامل

الباب الأول

الحركة الشعبية



كان عرض قضية مصر فى مجلس الأمن تجربة منجحة أتاحت لها أن تنقل القضية المصرية من دهاليز السفارات السرية إلى الندىّ الدولى لتكون مشكلة عالمية . وقفل الوزير الذى عرضها راجعا من أمريكا ، حيث اجتمع مجلس الأمن ، بعد أن دق فى آذان العالم أجراس الحذر بقوله : «إننى إذا رجعت الى قومى غضبان يائساً من عدالة الأمم المتحدة فسيكون الشرق الأوسط بلداً يئوساً وسيجتاحه الطوفان » .

لم يفصل المجلس لأحد الخصمين بل أجلهما أجلا لعلهما أن يسويا ما اختصما فيه . فصار على الإنجليز ألا يدعوا فرصة التسوية تفوت . لكنهم ـ على مألوف أمرهم ـ عملوا على لقاء مصر فى « الممر التجارى » لا فى الطريق السوى ، حيث التسليم لصاحب الحق بالحق كرامة وأمانة . أما « الممر التجارى » فهو الطريق العابرة لماكسات الأسواق ، أو خطة المفاوضات ، التى ضل السعى فيها من ثلث قرن ، ومع ذلك بدا لهم أن يسلكوها من جديد ليكسبوا أى أجل جديد ، ويتراءوا للأمم المتحدة بوجه قد ارتسمت عليه علامات إخلاص .

وهيأ لهم الأسباب حلول أجل الانتخابات العامة ، وخيل إليهم أن مصر الدامية ستخر جاثية تحت أقدامهم بعد ما ذاقت من العذاب فى السنوات الماضية فى الداخل والخارج .

وكانت صيحات الشعب فى التماس الإصلاح كهزيم الرعد أو أشد ، فلم يكن عجباً أن تزجى رغبة الشعب فى التغيير ورغبة الانجليز فى المفاوضات مع حكومة شعبية ، ريحاً رخاء للناخبين ، فيعلنوا رغبتهم فى طراز من الحكم جديد ، يعالج ما أسقم الشعب ويقوم اعوجاج الملك بالسلاح البرلمانى .

وكان الملك يعالن الشعب جهرة أنه يريد أن تتوازن الأحزاب فى مجلس النواب ، وفهم الشعب قصده ، وهو إضعاف القوة البرلمانية . فرد عليه كيده ، وأحرز الوفد - حزب الكثرة الشعبية - أغلبية ساحقة مكنته من ولاية الحكم وحده .

فكان يوم ٣ من يناير سنة ١٩٥٠ يوم ثورة شرعية فى « صناديق الانتخاب » على ماضى الملك وآماله . باللغة الدستورية التى يخاطب بها الشعب حكامه .

لم يكد البرلمان يعقد الأولى من جلساته حتى كشفت خطبة العرش عن حقيقة الانتخابات الجديدة وهى أنها « حركة شعبية كبرى » ، ذات اتجاه جديد كاسح كالفيضان ، نحو تغيير جوهرى شامل . وخضع الملك لها - بادى الرأى - وإن كان فى دخيلة نفسه يستجم ليهجم . .

ومضت الوزارة لطيتها يحملها تيار شعبى جارف للنهوض بتبعاتها وتحقيق وعودها ، والحق أنها كانت أمانى الشعب فى السنوات العشر الماضية ، فكان كل تأخير لها تأخيراً مضافاً إلى عشر سنين .

واستفاضت التحقيقات والاستجوابات عن الفساد الذى حاق بالبلاد

وكان أخطرها استجواب الأستاذ « مصطفى مرعى » عن مغانم حاشية الملك وجرائم الأسلحة الفاسدة التى خانت الجيش المصرى فى حرب فلسطين .

وكان الملك وراء حاشيته ، يبعث فى كل ليلة رسولا إلى المستجوب ليتنازل عن استجوابه .

شهد « أحمد عصمت » جلسة الاستجواب عشية ٢٩ من مايو سنة ١٩٥٠ متابعة منه لمواقف الشجاعة من أجل مصر ، ولكفاح رجل له به عهد ، وآصرة وثقى من الود ، فوق كونه محاميه . فسمعت أذنه ، وبصرت عينه ، فى المجلس الأعلى للبرلمان بما لم يكن أحد يجسر على الهمس به إلا إذا عسعس الليل أو أسدلت الحجب .

راع المستجوب بهجومه القوى مجلس الشيوخ ورواده خمس ساعات سوياً ، وكان تعليق « أحمد عصمت » على ما رأى نشوة انشراح غامرة ، وكلاما قليلا ، كدأبه ، مثل قوله : « إن مصطفى مرعى دخل التاريخ » وإن « مصر بخير وفيها مثل هذا الرجل » .

والحق أن الاستجواب كان الموقعة البرلمانية المظفرة بين مواقع الثورة الدستورية فى سنة ١٩٥٠ .

واتخذت وقائع الاستجواب سبيلها إلى النيابة فى تحقيقها مع صحيفة « روز اليوسف » فعرف الشعب فضائح الأسلحة مفصلة ، ونصيب الملك منهـــا ، وأسباب ما أصاب الجيش المصرى فى فلسطين ، ومدت العدالة يدها بتحقيقات ضخمة أجرتها النيابة العامة مع المسئولين ، فكانت بداية النهاية .

وتابع صاحب الاستجواب معركته بمقالات من نار فى صحيفة « اللواء الجديد » منها « ولاء الأحرار وولاء العبيد »

ثم أخرج « مصطفى مرعى » بعد بضعة عشر يوما فى ١٧ من يونيو سنة ١٩٥٠ وأخرج معه مَن ظاهره من الشيوخ باقتراح ملكى . أحيا به الملك نزاعا قديما بين الأحزاب على تعيينات الشيوخ . فأصيب النظام البرلمانى بقاصمة الظهر . يوم أخرج الشيوخ الذين غضب عليهم الملك من أجل استجواب !

ثم جاء يوم القضاء ، حين جاء دور الحاشية أمام القضاء ، وحيل بين الملك وحاشيته وبين القضاء ، فلم تصل أيدى القضاة إلى الجناة .

والله ـ ومن صفاته العدل ، جلت صفاته ـ لن يرضى أن يتصدى أحد لتوزيع العدل إلا أن يكون خالصاً لوجهه ، صادراً عن حكمه . وما المساس بالقضاء إلا زعزعة للوجود الشرعى للحكم ، وهتاف بقوى الشعب أن تثور ، ويوم لا توجد عدالة لا تكون دولة . فلم يبق سواغ لنظام فى قوائمه تلك الكبائر . وقامت ثورة الجيش فى العام التالى وفى طليعة أسبابها فضيحة الأسلحة ذاتها . فخلع الملك وأديل من نظامه بتمامه .

وقدمت بعض التهم التى حواها الاستجواب وتهمة إخراج المستجوب واشياعه من مجلس الشيوخ ، فى أول قضية لمحكمة الغدر فى عهد الثورة ، فردت للشعب بعض ماله وأدانت من سعوا لإخراج الشيوخ .

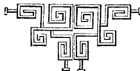
شرع البرلمان الجديد القوانين التقدمية التى وعدت بها الحكومة . وكان أهمها إلغاء الأحكام العرفية التى استبقتها وزارات الأقلية لتحكم بسلطانها بعد الحرب ، ومجانية التعليم ، والضمان الاجتماعى ، وتحسين حال العمال والموظفين . فشارك بالقوانين التى قبلها ، والمقترحات التى رفضها ، فى الاحتفاظ للأمة بمستواها العالى وانبعاثها المستمر .

لكنه وهو وليد الثورة الدستورية ـ والوزارة وليدته ـ رضى أن يكون من الوزارة بمثابة وليدها ، فلم يقدر أن يكون قائداً لها لتبلغ

بالثورة غرضها ، فتكف من غرب الملك ! . . فدار النظام الحكومى كله حول ذاته مرة أخرى ، لمداراة ملك تمادى فبطر ، ولم يفطن لخطر .

أما الشعب فلم يعرف المداراة. بل شرع فى وجه الملك أمضى أسلحته وهو سلاح الحرية الذى تسلمه من البرلمان يوم ألغى الأحكام العرفية ، فتصدى للملك فى كل مكان ، دون التماس عون أو اتقاء غضب ، وجرت الأقلام وحفلت الاجتماعات والمظاهرات فى إبان تلك الحقبة ، بأبرع ما خطب أو كتب عن حكم الشعب للشعب ، وهوجم الإنجليز والملك فى أسرته وثروته ، بأروع ما هوجموا به حتى ذلك الحين فى تاريخ مصر ، وثارت الجماعات والأفراد وبخاصة « الاشتراكيون » و« فرسان » « اللواء الجديد » للحزب الوطنى و « الإخوان المسلمون » تتبارى أقلامها فى نشاط جبار له صريف وجرس ، لدى من يسمع ويحس ، عبأ القوى الفكرية للشعب وحشد حشوده للانتقاض والانقضاض .

كانت فترة من الانبعاث الشعبى المسدد ، دفعت فيها الأمة كبريات آمالها وشكاة آلامها إلى الوجود . فتلألأت فى الأجواء آراء كثر ، تسكر البصر ، وتزحم الأفق . يحملها إعصار من الرأى العام المنطلق ، غير بعيد ، من عقاله . فارتاع قوم وارتاح قوم ، وشرح المؤمنون صدراً وفزع الآخرون .



الباب الثانى

إلغاء المعاهدة



ألحت الحكومة فى أن يفاوضها الانجليز وكان هؤلاء كمعروف عهدهم يستأخرون ويستأنون .

كان وزير الخارجية البريطانى فى مارس سنة ١٩٥٠ يعتذر بموقفه البرلمانى لوزير الخارجية المصرى ، والوزير المصرى يعتذر بأن له - مثله - موقفاً برلمانياً جديراً بالاعتبار ! ويناشده الاطمئنان والثقة فيذكره بقوله «ليس مهما أن تكون بيننا معاهدة مكتوبة ولكن المهم تبادل الثقة وتوفر الاطمئنان» .

جاء ذلك فى الخطاب الأول من كتابات المتفاوضين فكان فيه ما فى العدسات المكبرة ، التى تكشف على صغرها الأشياء مكبرة مجهرة : فذلك جانب يمتنع عن الوفاء وهذا جانب يلتمس حقه لدى من لا تلتمس الحقوق عنده .

ولو بصرت الحكومة المصرية منذ ذلك الحين فى مارس سنة ١٩٥٠ بوجوه الأمر ، لأعدت مصر للكفاح الذى أخذت نفسها به بعد بضعة عشر شهراً من التلبث الأعزل ، لتأخذ حقها غلابا لا لتلتمسه .

جرت المحادثات بين وزير الخارجية المصرى ثم رئيس الوزارة المصرى الرئيس السابق « مصطفى النحاس » وبين رئيس أركان حرب الامبراطورية . فلم تك محادثات أو مفاوضات . بل كانت محاورات ومداورات بين طرفين بعيدين لا يتلاقيان ، عبرت عنها النصوص الرسمية أبلغ التعبير ، حيث يقول الرئيس المصرى للماريشال : « الفكرة تختلف عندنا اختلافاً أساسياً ، اتفق معى فى الأفكار ونحن ننجح » .

وهيهات .. هيهات أن يتفقا أو ينجحا .. فهذه هى المفاوضة الثانية عشرة بين الدولتين فى ثلاثين عاما .

كانت الأمة يائسة من هذه المفاوضات ، يوحى إليها أن الذين كذبوا ستين وعداً وسبعين عاما سيكذبون فوق الستين وفوق السبعين ! بل أدركت بغريزتها أنهم يريدون هذه المرة أمراً جديداً خطيراً ... ذلك أن الاتفاقات العالمية فى الحرب الأخيرة قد ألغت المعاهدات غير المتكافئة ، ولما طرح النزاع الروسى الايرانى على مجلس الأمن أعلن وزير خارجية بريطانيا نفسه : « إن الحكومة البريطانية ليؤسفها أى اتفاق يبدو أنه قد انتزع من الحكومة الايرانية قسراً على حين تحتل حكومة الاتحاد السوفيتى جزءاً من إيران » بل هو قال : « نحن دول قوية توصف أحيانا بالثلاثة الكبار ولكننا نمثل القوة دون ريب وللقوة ولا شك حسابها فى المفاوضات » .

وقرر المجلس أن « وجود القوات الأجنبية فى أرض دولة يسلبها حرية الاختيار فى المفاوضات » .

فكيف بغاصب يحتل فى دولة كل أرضها ... لا بعض أرضها .. ! ؟ بهذا الوضع العالمى تحللت مصر دولياً من ربقة معاهدة سنة ١٩٣٦ . وأحس الشعب أن الانجليز يرومون اتفاقاً يأسر مصر بعد

إذ تحررت ، وطالت المفاوضات تجرى فى تستر رتيب ، مريب ، شكك الأمة فى حقيقتها . وارتحل وزير الخارجية أشهراً فى جمعية الأمم المتحدة فى أمريكا ثم فى إنجلترا ، يلتمس الوسيلة لإقناع أمم الأرض بأن يترك الإنجليز لنا بلادنا ، ثم عاد غير مفلح ولا منجح .

* * *

لكنهم بعد أن رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قطعوا أنشوطة المحادثات فأوفوا على الغاية ، ورفعوا لواء الوطنية المصرية عاليا فى ٨ من أكتوبر سنة ١٩٥١ ، يوم وقف رئيس الحكومة فى البرلمـــان يعلن إلغاء المعاهدة ويقضى على سياسة « المفاوضـة المستمرة » أى المهادنة المستترة ، والرضا بالأمر الواقع أى الاحتلال، الذى لا يزول إلا برضا المحتل . وهى السياسـة التى جر العدو إليها الزعماء جراً بتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ بعد أن أوهت جلده سياســـة البطش ونفى الزعماء ، فأعلن حقوقا لمصر ، قيدها بتحفظات ، جعلها موضوع مفاوضات ، وترك لها أن تضع لنفسها دستوراً ونظاما نيابيا ، وأبقى فيها جيش الاحتلال ...

وما أعلن العدو خيراً لمصر . بل هو قدم للمجاهدين ما استروحوا التلبث عنده واستحبوا التناحر عليه من مقاعد البرلمان ، وحول ميدان معركة كانت بيننا وبينه فصارت بيننا وبين أنفسنا ! وصير السلطان ملكا ، وقدم لسلالته عرشا ليستبقيه فى يده يدنيه ويرخيه ، وأوهم « عدلى » و « ثروت » أنهما ظفرا لنا بدستور قال عنه « سعد زغلول »إنه «دستور على أحدث المبادىء العصرية » .

وما هو إلا نظام الحكومة التى تعمل فى الدائرة الامبراطورية المرنة فتنجذب نحو نقطة الارتـكاز ، وهى الإنجليز . السافرون حينا والمختفون وراء الملك دائما .

ما هى إلا صراعات الأحزاب ، بين قوة شعبية لا صبر عليها إذا وليت الحكم ، وأخرى يصطنعها السلطان ليس بملكها أن تحكم لمصلحة الشعب إلا بالمساومة أو المداورة أو التفريط . وما هى إلا الانتخابات الزيوف . والبرلمانات التى لم تسقط وزارة من عشرات ، وأسقطتها الوزارات عشر مرات ! .

وفى كلمة واحدة كان حكما هزيلا لأمة ما لها من فواق إلا أن يجلو العدو ، فتسلم من علة من العلل .

فاوضت مصر إنجلترا مرات بناء على تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ وانتهت فى سنة ١٩٣٦ إلى ما بدأت به سنة ١٩٢٢ ، من بقاء جيش الاحتلال ! وبعد أن كان الاحتلال عدواناً لا يغتفر ،وغزواً لا يبرر ، أمسى شرعياً بمعاهدة صيرت مصر ، فوق ما أقرته من احتلال أرضها ، ذنب النجم ـ إنجلترا ـ فى حالة الحرب ، وجعلتها بجعلها فى حالة خطر الحرب ؛ والعالم من عمل إنجلترا وتصويرها فى خطر حرب دائم .

فلئن كانت سياستها التقليدية أن تفرق لتسود ، وأن تحدث التوازن بين الأمم ، إن إحداث التوازن بين القارات ، بل بين العالم الغربى والعالم الشرقى ، سيمسى ـ إن لم يكن أصبح ـ سياستها غداً ، ليدوم الخطر أبداً...

كأنما زينت لها مطامعها أن تمسك القارات الخمس فى أصابعها العشر ، أو تجعل العالم اليسارى فى يسراها والعالم الغربى فى يمناها ، تضرب باليمين وتكسب الشمال : تجارة ونقوداً ، أو نفوذاً ، أو جزيرة أو برزخاً ، من مفاتيح القارات أو نواصى الدول ، لتشد إليها كرة الأرض من وسطها ، بالحزام الطويل من قواعد الاسطول ، وهى تتتابع من المانش إلى جبل طارق فمالطة فقبرص ، فالسويس فعدن ، فسيلان فسنغافورة ، إلى شنغهاى أو إلى أستراليا .

ما كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ إلا الصك الشرعى الذى تسعى إليه إنجلترا من قرن ونصف قرن لتثبت أقدامها فى برزخ السويس بين الشرق والغرب ، منذ حاولت جيوشها أن تطأ الثرى المصرى فردتها مصر فى « رشيد » سنة ١٨٠٧ . فلما باءت بالهزيمة حاولت تحطيم العمارة البحرية المصرية بعد عشرين عاماً فى معركة نفارين سنة ١٨٢٧ . ثم استطردت لدسائسها لعلها ترجع بمصر القهقرى بعد أن عجزت عن احتلالها .

وما وفد الفيكونت « أنفروى Anfroy » إلى قمم الجبال فى لبنان ليتعلم اللغة العربية سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ كما زعموا . ولكن ليجيش جيوش الثورة ضد الجحافل المصرية المظفرة باسم الأمير الفرنساوى العسكرى . ولا راح ذلك « اليسوعى » البولونى ينقل العتاد للثوار إلا لأنهما - كالعتاد نفسه - بعض مشتروات الذهب الإنجليزى ، سلاح الإنجليز السرى .

ولا أعلنوا أنهم يدفعون راتب ستة أشهر لكل جندى يهرب من الجيش المصرى فى تلك الحرب ، ولا بعثوا إلى قائد الجيش بعنونه بالولاية على سوريا وقبرص مدى الحياة ومليون قرش مصرى إذا خان العلم المصرى ! ولا أرسلوا إلى القائد « محمود بك » يعدونه بولاية طرابلس ليخون بلاده ، ولا أطلقت شركة الهند الشرقية البريطانية فى نفس الزمان دسائسها ضدنا فى جزيرة العرب ، ولا ركبوا إلى مطامعهم بعد سنين ديون المرابين على الخديوين ،ولا انحازوا فى سياستهم المصرية إلى الأتراك أو ضدهم ، وإلى الفرنسيين أو ضدهم ، إلا ليكونوا دائماً ضدنا .

ولا أرسلوا المستشرق « بالمر » إلى سيناء ، يلق حتفه وهو يفشى الرشى بين بدو الصحراء ، والجيش البريطانى يغزو مصر فى سنة ١٨٨٢ ! ما صنعوا ذلك الصنيع الدؤوب الملح ، من دسائس لم تفلح ، وغزو لم

يتورعوا عنه ، إلا ليقطعوا على مصر طريق التقدم ، لتبقى مؤخرة بين الأمم ،وتفقد استقلالها فيستقروا بها ولا تسترد حريتها وقوتها براً وبحراً.

لكن الأرض تدور . وشمس النهار تعلو . ومصر تخطو إلى مصايرها الكبرى خطوات الجبابرة التى تعودتها فى بعض حقب التاريخ . وأول خطوة لها أن تحطم المعاهدة الجائرة التى لا سند لها غير بطش الغزاة .

° ° °

بهذا قضى إلغاء المعاهدة فى سنة ١٩٥١ على تاريخ ثلث قرن من المفاوضات وقرن ونصف قرن من المؤامرات والمعارك ، وأميط اللثام عن وجه إنجلترا ـ فرأت مصر فى سيمائه ضمير خصيمتها .

ولم تكن مصر تنتظر كلمة رئيس الوزارة فى البرلمان لتلغى المعاهدة وإنما الذى كان ينتظرها هو البرلمان نفسه ليصير الإلغاء قانوناً من قوانين الدولة .

أما المعاهدة نفسها فلم تكن ذات موضوع بعد ما أبرم من اتفاقات دولية . ولم تكن مصر خارجة على القانون الدولى لتؤخذ عنوة ، أو لا تسرى الاتفاقات لمصلحتها ، وهى أم الحضارات وقصبة الشرق ، وملتقى خطط دفاعه . لن تقوم برسالتها فى نشر السلام إلا قيامالأحرار فىاقتدار.

كان انتصاراً للشعب أن يصدر قانونه فى حق نفسه ، ويمزق الوثيقة التى استكره عليها شر ممزق ، ويعلن حقــوقه تحت الشمس ، ويطرد الإنجليز بقانون يصدره هو .

والحرية تؤخذ ولا تلتمس ، والأمم الحرة يؤلفها رجال أحرار . وليس حراً إلا من قدر على شراء حريته بحياته . والحق قوة وجدارة .

رجعت الحكومة إلى قومها ونفسها ترتب دارها ، وتهيء أساليب دعايتها لتنفذ السفراء بكلمة مصر الأخيرة إلى أمم الأرض .

وعاجلتها الأحداث ، وسبق الشعب حكومته وبرلمانه ، إلى القتال .

فلم تكد مراسيم إلغاء المعاهدة تعلن حتى تجاوبت جنبات البلاد بالصيحة على العدو . وتقاطر العمال من أرجاء القنال إلى فجاج الوادى تاركين عملهم . فأشاعوا فى كل دسكرة ومحلة ، ما لا تقدر على إشاعته الصحف أو الاذاعات ، أن يوم الخلاص دنا ، وأنى لبنى مصر أن تكون الكلمة لهم فى استقلال بلادهم ، وأن يعلنوا أن الصيحة على الجند الشاكى السلاح ، لن تكون إلا صيحة السلاح وحدها ، هنالك حيث لهم وتر يطلبونه .

وفتح العالم أعينه على تلك الظاهرة الباهرة وهى أن أول الخارجين على الانجليز فى القنال من العمال ، كانوا أبناءنا وإخواننا العمال من بنى السودان .

وبذلت مصر الرسمية بذلها للذين خلفوا الانجليز باعتماد مبدئى خمسة ملايين من الجنيهات لكن المطلوب عند الشعب كان شيئا آخر .



الكتاب الرابع

إلى القتال

« اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم ،
فثبتوا الذين آمنوا . سألقى فى قلوب الذين
كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق .
واضربوا منهم كل بنان » . (قرآن كريم)

الباب الأول

التعبئة العامة



كان لمصر وما يزال فى منطقة القنال دم من سبعين عاماً ، وكان على فتياننا أن يثأروا له ، يوم عدا علينا العدو فى مأمننا .وواعدنا«دلسبس» أن يحمى القانون الدولى حيدة القناة ، وأن يصطرع مع كل إنجليزى يطأ شواطئها جندى فرنسى يذوده عنها . وغدر الإنجليز بالقانون ، وأخلف « دلسبس » موعده ، وسال الدم المصرى الذكى فى تلك البقعة نفسها من ثرى مصر ، مظلوما يهيب بالمصريين دائما أن يذكروه .

وكان وما زال بين الأحياء من قتل أهلوهم وذووهم فى سنة ١٩١٩ ، أو سلبت حرياتهم من عهد الاحتلال البريطانى إلى اليوم ، أو انتهبت أرزاقهم ،وسرقت عملاتهم ،وسيموا خطة الوكس جيلا بعد جيل . هؤلاء هم العشرون مليوناً كانوا يتداعون للفداء فى ٨ من أكتوبر سنة ١٩٥١ .

وكان « لأحمد عصمت » نفسه حسابات خاصة مع جيش العدو . . أقدمها حساب « بطل السودان » وله عند الإنجليز دم لن يطل ، منذ نزعت من يمينه رايات النصر .وأعيد إلى مصر ، ليحتل السودان من جديد فيزعموا لأنفسهم شركا فيه مع ذويه ! وليقتل « الجنرال جوردون » فيزعموا لأنفسهم نصيباً فى التضحيات ، ويقتل الجنرال « لى ستاك »

فتخرج القوات المصرية من وطنها فى السودان ، وتعطل الحياة البرلمانية ، وتغتصب إنجلترا من مصر نصف مليون جنيه تحت اسم دية ! .

فلما غصب العدو السودان غصب الكبرى من مفاخر «أحمد عصمت» وكان كلما أرجع البصر إلى الصور المعلقة بداره للبطل المصرى ، دوت فى دمه صيحات الانتقام . و « الصورة الواحدة تعدل ألف كلمة » ، فكم من آلاف الكلمات كانت تهز وجدانه وكيانه .

ومع أنه كان مكيناً ، مكيثاً ، متريثاً ، كسب خبرة فى الصمت أيام تجميع السلاح ونقله للمتطوعين ، وكانت قد تقدمت به السن بضع سنين. فتقدمت به فى الصبر ، وفى الكره ، وفى تعهد ما تنطوى عليه أضالعه من مقت للإنجليز ، لم يتجرم أسبوع حتى كان مركزاً لإشعاع خارجى ملحوظ ، وكأنما كان هو وحده المجنى عليه لا بنو الوطن طراً .

لما خرج السخط يوم إلغاء المعاهدة من الصدور إلى واقع الأمور ، حان للجماعة الخيرة من بنى الوطن أن يثبتوا وجودهم بالفكر وبالفعل ، فكان مخرج السخط من صدر هذا الرجل الهندسى اليد والعقل ، إلى يده ويد غيره ، أعمالا لا أقوالا .

وتألفت منه ومن بعض صحبه جماعة ظل نشاطها خافيا ، لولا ما كان يصرح به . وفهم الأقلون منه أنهم يستحضرون السلاح من خارج البلاد فى إبان طيرانهم .ولم يعد يدخن سيجارة إنجليزية ،بل غدا لا يذر فرصة إلا أطلق لسانه فى دخان الإنجليز ومن يشترونه أو يبيعونه ، بل أمسى لا يمسك عمن يدخنونه دون أن يشتروه .

وراح يبدئ ويعيد: « إن على الأفراد والجماعات أن تؤدى واجبها بعد إلغاء المعاهدة دون تدخل من الحكومة، بل على رغمها، فتلك حرب الشعب» وكان كل امرىء يفهم الأشياء ما شاء . فحسب كثرة الناس أنه يبتغى جمع التبرعات لإغاثة المنكوبين ولم يدر فى ذهنهم أن السلاح قصده ،

لأنه لم يعرض برامجه إلا على قلة من شركائه فى التنفيذ ، ولأن العليمين بأنه رجل سلاح أولا وأخيراً ثلة من أهله الأقربين وقليل من الآخرين، وقد كان كتوما ، حق كتوم ، فندرت اجتماعاته بالناس وصار فى مجامع أهله أدنى إلى الصمت منه إلى الـكلام ، حتى ليتيح لقراباته أو خلصائه فرصة مجادلته . وكم كان ضنينا بنفسه عن المحاجة واللجاجة .

انبرى جم غفير من شباب مصر لملاقاة جيوش الإمبراطورية فى خط طوله ثلاثمائة كيلو متر من بور سعيد الى الاسماعيلية الى السويس ، ومن ورائه خطوط أخرى ، متبارين فى التضحية وفى الفضيلة.واستولت على الأمة جمعاء تلك القوة التى ينزل القدر عندها كلما صـدقت الأمم جهادها ، فترفعها درجات ، فى لحظات ، فوق مستواها .

وبرزت للأعين الظاهرة الـكبرى فى جهاد سنة ١٩٥١ وهى أن أبناء الجامعات قد حملوا عبء الفداء الأكبر ، وشهدت مصر فى ذلك العام ما تشهد نظائره كلما أرادها التاريخ أن تسطر صفحة من كرائم صفحاته ..

كان الجامع الأزهر فى القرون الوسطى مركز الجهاد الأول ضد الصليبيين القادمين من شمال وغرب ، وضد التتار القادمين من الشرق ، حيث العلماء والطلاب يحرضون المؤمنين على القتال فيخترطون أسيافهم وهم طلائع لهم .

وفى منتصف القرن العشرين هب الجامع العتيق للدفاع عن الوطن بأرواح ذويه كما نهض بتبعات الدفاع عن الدين فى سائر أعصره بروحه .

وشهدنا سباقا فى الفضل كسباق المهاجرين والأنصارفىالفتوح الأولى، فتبارت أقدم جامعة فى العالم مع الحديثات من جامعات مصر ، فبدا من كل جامعة فضل ، وغدا من كل جامعة فيلق ـ تحتفل به مصر الشعبية وتجيزه مصر الرسمية ، ويحتفى به أساتذة الجامعات ـ إلى حيث يتفرق فى كل وجه من شعاب القتال .

وما هى خطوات الشباب ميممة شطر القنال ، وإنما هى نبضات شعب موتور يتشافى من وتره بمناجزة عدوه ، لعله يشهد فى حياته الانهزامة الفاصلة لغاصبيه من رماح بنيه .

هى ذى قذائف ومتفجرات تحمل أسماء العلماء المصريين فى جامعة القاهرة . وكتائب الإخوان المسلمين تعمل مصبحة ممسية ؛ وهى العليمة أن موعد الله لا خلف له ، ويا لرعب الإنجليز منها – رعب المذنب من المتطهر !

وكتائب الاشتراكيين وكتائب الشبان المتحمسين فرادى وجماعات . وتلك الوحدات ترابط فى صحراء السويس عند مبدأ القناة ، وأخرى تجتلد أشد الجلاد مع العدو فى الاسماعيلية حيث قلب قواته ، ثم أخرى فى نهاية القناة فى بورسعيد .

وهؤلاء غلمان فدائيون مثل « نبيل منصور » يضحون بأرواحهم متوشحين أسلحتهم مدلجين ومصبحين ، يشدون على العدو ويوجعون فيه قتلا ذريعا ، وتخريبا وتنقيبا .

وهذه « أم صابر » من فقيرات مصر ، ولكنها أكرم الكرائم من حرائرها . يسفك الانجليز دمها ! بل هؤلاء أمهات وآباء يجادلون أبناؤهم من تلاميذ المدارس الثانوية ليكفوهم عن القتال بأنهم لحداثتهم ، أقل جدوى فى القتال ... ومع ذلك يمضون فيه – لأنهم يعلمون أن قتلهم فى الوطن قليل .

والأنباء تترى ... عن أسرى للإخوان المسلمين من طلاب كلية الطب وشهداء من طلبة الجامعات بالقاهرة والاسكندرية سيحفظ التاريخ أسماءهم فى فاتحة الكتاب من تاريخ الجهاد .

وفى الوقت ذاته كان الخبير الثبت فى شئون السلاح وزملاء له يتفرقون فى وجوه الوادى ، ثم يجتمعون فى صحراء السويس وفى أرباض عين شمس أو فى جوار الهرم .

ويبرح مصر فى طيرانه ، ومع ذلك تشهد عربته راجعة من خط السويس أو فى طريق المعاهدة ، شعثاء من وعثاء السفر ، فيخالها أهله عارية جامل بها زملاءه فى رحلاتهم أو رياضتهم ، ولا يفطنون إلى أنه وصحبه يسارعون بها فى جهاز المجاهدين .

روى أحد مديرى شركات الطيران عنه أنه قد سجل نفسه بين الفدائيين فى نوفمبر . وأن واحداً منهم حدثه أنه شهده ذات يوم يدفع مائة جنيه ، وفى يوم آخر خمسين جنيهاً . ومضى مع الركب المجاهد يجمع الأسلحة من كل مكان يقدر عليه ، وكاد من حماسته يفوته الحذر . حتى لينبهه أحد موظفى المطار قبل استشهاده بأسبوع على أن يراعى ظروف شركته فلا يحدث لغيره حرجا .

* * *

ونفخ فى الصور فغدا الشعب فى تعبئة عامة ، وأخذ المصريون من كل حدب ينسلون إلى صحراء القناة . فإما قضى عليهم العدو أو قضوا عليه ، وهم فى الحالين منتصرون ، قد احتسبهم الوطن عند بارئهم ، أو قد شفوا أنفسهم مما تجد .

وأسهمت الصحافة بنصيبها فى الوطيس ، بل خصصت لها مراسلين بين أظهر الكتائب . . . وتوالت الاكتتابات للتسليح والشهداء وأبناء الشهداء ، وازدهر بمصر فى هذه الفترة أدب القوة ، بل أدب جدير بأن يسمى فى التاريخ « أدب معركة القنال » . وأعدت الحكومة قانوناً لإباحة حمل السلاح ، ولو أن حمل السلاح فى واقع الأمر لم يبق جريمة ، فالمتفجرات والأسلحة ترد من كل فج إلى القاهرة وتصدر عنها ، بل غدت ساحات الجامعات ميادين رسمية للتدريب ؛ ورعت الحكومة نفسها نظام الكتائب فجعلت على رأسه وزيراً . واشتملت مصر كلها ناهضة باهرة . فاكتتبت الأغلبية البرلمانية للكفاح الوطنى بأضخم مبلغ فى تاريخ اكتتاباتها .

أما البوليس المصرى فكان جديراً بأنه مصرى ، بما دافع عن حريات المصريين وعن حرماتهم . ورفع اسمه إلى السماك الأعلى بأرواح شهدائه الذين آثروا أن يلحقوا بالرفيق الأعلى على أن يركنوا إلى التسليم للانجليز.

فى ذات مساء أحيط بقوة أحد اللواءات ، وكانت بضع عشرات ، فى حين كانت القوة الإنجليزية بضع آلاف . طلائعها الدبابات ، وسماؤها مظلة من الطائرات . وسلم اللواء عن خطأ ، فقدمه الوزير ، من يومه ، إلى مجلس تأديب ، لأن التسليم ليس مما يعرفه قانون الشجاعة المصرية .

بلى ، فمن حق مصر . وهذه هى ، أن يكون لها ، باسمها ، قانون شجاعة . وانطلق الشباب إلى شعاب القناة أرسالا ووحدانا ، يضعون السلاح حيث شاءوا فى قلوب العدو ، ويدمرون المعسكرات أينما استطاعوا لذلك سبيلا ، ويأسرون جنود الامبراطورية فيجردونهم من أسلحتهم ليتخذوا منها سلاحا لهم . فكانت تتفرق أوصال الجند من الرعب فيخرون بكيا . فنهم من يبكى فزعا ومنهم من يبكى لأنه من بلد مظلوم كظلم بلادنا . وقويت عقيدة الأمة فى نفسها إذ استيقنت قدرتها وتعاظم قوتها .

أما الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس فقد كبها الله لفيها . ولقيت على صفحات وجهها من لطمات فى مصر كمثل ما كانت تلقى على مقربة منها . إذ طرد الإنجليز من آبار الزيت فى « عبدان » من أعمال إيران ، خزايا ندامى ، وتجمعت سفائن « الأرمادا » تنقل النازحين منهم كأنما تنقل العار إلى الجزر البريطانية .

ولبثت الامبراطورية البريطانية على مشهد من أمم الأرض ، متلبسة بأنها تعمل على إفقار الشعوب للاثراء على حسابها ولو نشرت الشيوعية فيها وبأنها تقذف علل الشيوعية فى الشعوب ، وتبقى فى البلاد بدعوى أن تحاربها .

وزار مصر « مصدق » رئيس وزراء إيران إذ قفل راجعاً إلى بلاده

من أمريكا ، فحيا الجهاد الأكبر بقوله « إن العالم يتعلم على مصر دروس الفداء » واعترفت إيران بإلغاء المعاهدة .

كان « أحمد عصمت » فى تلك الآونة كثير الكلام عن إيران ورجالها ومعاهدها وبطولة « مصدق » ، كثير التعليق على مواكب الفدائيين من طلبة الجامعة إلى القنال ، وكأنها كانت مواكب أعراسه . همه المقيم المقعد هو الإنجليز ، يقول فى كل مجلس :

« إن أيام الإنجليز فى القناة معدودات . وسيكون همهم بعد اليوم أن ينسحبوا بغير خسارة أو بيسير منها . فهم بعد إذ كشفتهم أمم الشرق للعالم ، وبعد أن ثبت عزم مصر على أن تدمدم عليهم بذنوبهم ، وان المصريين المتعلمين ، على الخصوص ، هم السباقون بالتضحيات فى تلك السبيل ، سيلمسون بأيديهم أن مصر ليست الأمة الوادعة التى جهدوا طيلة القرن الماضى ، وهذا القرن ، فى أن يذيعوا بأحاديث استقرارها ووداعتها فى العالم وسيرحلون صاغرين — والمسألة مسألة زمن ، وتحديده فى يدنا نحن » .

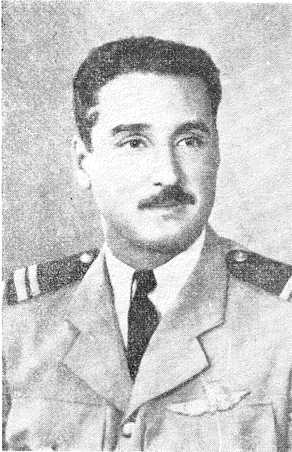
ويفيض فى أن « الجامعة هى مصر المستقبل ، وما دامت مصر المستقبل قد آثرت الموت على الاستعمار ، فلن يتاح له أن يدس السمام للجيل المقبل كما سمم الأجيال التى سبقت » ويردد أشعاراً لفكتور هيجو عن « الظلم الذى يشيد دولته على الجليد فإذا ارتفعت شمس الحضارة ذاب الجليد وانهار الظلم من أعمق آساسه » .

ويقول « ورب ضارة نافعة ، فستكسب مصر المعركة بيدها ، ولن تكسب الاستقلال بمعاهدة تعقدها ، وإنما تكسب ، كما تكسب كل الأمم ، بالأرواح التى تفقدها » .

ثم يقول ويقول : إن مصر لن تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال ، ولولا ما تعوده الناس كافة من اتزانه وإيثاره الأناة ، لحق عليهم أن

يدركوا ما أخفى ، من المشاركة الفعلية والمالية فى حركة الفدائيين على النحو الذى ظهر الناس على آثاره من مراجعة حسابه بعد استشهاده ، فيما سحب من مصرفه أو تسلم من مستأجريه ، حتى لم يبق له يوم استشهاده فى المصرف إلا مائتان من الجنيهات ، صرف منها لنفسه صباح استشهاده عشر جنيهات . كما انصرف لأهله خمسون أخرى فى اليوم ذاته بشيك آخر .

كان فى نهاية موسم الإيراد ، وإيراده السنوى بضعة آلاف ، لكنه لم يشأ أن يدع لصغاره مالا ، مصر به أحق .



إن مصر لن تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال

الباب الثاني

نيرون فى مدن القنال



كان كفر أحمد عبده ربضاً من الأرباض الوادعة لمدينة السويس : ولهذه الميناء فى خيال المصريين مكان كريم مذ نشر الاسلام ضياءه فى ربوع الوادى . فصارت ميناء الحجيج إلى بيت الله الحرام فى كل عام . لكن الجدود العواثر لجرت عندها ينبوع القنال ، فانجذبت إليها جيوش الاستعمار ... وحيث وجد الاستعمار أهرق دم وفظعت فضيلة .

وكان كفر أحمد عبده يتاخم صهاريج تسقى منها المعسكرات الانجليزية فى ظاهر السويس . وأوجس المعسكرون فى أنفسهم خيفة أن تقطع المياه عنهم ، أو يحتمى الفدائيون بالصهاريج منهم ، فلم يحاولوا الاحتياط لأنفسهم ، ولم يثقوا فى قدرتهم ، وهم الجحفل اللجب فى شكته ، وله الطائرات والدبابات القاهرة القادرة على أن تحمى نفسها من سكان كفر أعزل ، بل رأوا ترويع الأنفس الآمنة فى منطقة القناة ، ليهجر أصحاب القرى لهم قراهم ، وينفى المصريون أنفسهم من ديارهم . على نحو ما صنع العدو من قبل بإخوان المصريين فى أرض فلسطين .

أرسل جبار الأرض إنذاراً إلى « محافظة السويس» فحواه أو مؤداه : أن حضارة بريطانيا العظمى لن تحفل بالانسانية إذا جاءت بها ضربات القدر فى طريق الاستعمار . .

وتحرك القائد الأكبر والقائد الآخر على رأس آلاف من الجند . وحومت الطائرات المنقضة فى السماء . وتربصت البوارج المدمرة فى الميناء ، وزحفت الدبابات ، والمشاة ، والخيالة ، والهابطون بالمظلات ، وفيالق الكوماندو .

كل ذلك من أجل أن تهدم منازل كفر أحمد عبده ! !

ووضع الديناميت وأدوات الانفجار ، وثمرات العقل الإنسانى التى لم يحفل منها الاستعمار إلا بآلات الفتك والسفك والدمار .

وقال رأس الجيش البريطانى قالة الشر ، وتفجر العلم البريطانى والشرف البريطانى ناراً ودماراً على القرية التى كانت آمنة فدمروها تدميراً ، وأرجع القائد البصر كرات إلى النار والدمار فلم ينتقع لونه ، بل سرى عنه ، كمثل ما نظر ، نيرون ، روما وهى تحترق .

وأتيح للإمبراطورية التى تباهى بشعر ، شكسبير ، وديمقراطية ، البرلمان ، ونزاهة ، القضاء ، أن تباهى بما جنت يداها .

ثم هدتها طبيعة التجار إن أن تعلن فى البرلمان الإنجليزى استعدادها لدفع ثمن كفر أحمد عبده ... ! فأزرى الإعلان بالجزار دون أن يزرى بالضحية .

هكذا يفهم الاستعمار كل الفضائل ، والحقوق ، والحريات ، سلعاً وتجارات ، لأن قاموسه قاموس بيع وشراء لا موضع فيه للخلق ولا للحق ولا للكرامة .

كانت أنباء هذه الواقعة تقرع الأسماع فى المذياع ، نبأ بعد نبأ . قارعة فى كل أذن ، فاجعة فى كل ذهن ، لكنها جعلت كفر ، أحمد عبده ، بلداً بطلا كالرجال الأبطال ، وفى القرى بطولة كمثل ما فى البشر من بطولة ، وإنما تشق البقاع وتسعد . فهبت أفواج من شباب الجامعة تثأر

لكفر « أحمد عبده » . وكم شقت على « أحمد عصمت » مخزاة كفر « أحمد عبده » ! فدهره الجزع ، واشتد لسانه على العدو ، وإن لم يفطن أحد إلا الأفلون الى أن النقد ليس إلا بعض التعبير عن جراحات نفسه .

تراءت للمفكرين المصريين فى ذلك الحين ظاهرة ذات خطر : يوم قال وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم إن الجيش المصرى جيش صديق محب للسلام ! ! فلقد حركت هـذه الـكلمة ـ وكبرت كلمة ـ كل شجن . فالجيش المصرى هو قلب مصر المكافحة وأداة استقلالها ، والجيش المصرى بين جيوش الأرض أمجدها ، ولا ينبيك مثل إنجلترا . وهى تقرأ عن آثاره من أربعة آلاف عام ، فى حين لم تـكن فى الوجود بعض الدول ! بل كل الدول .

بل هى تعرف آثاره فى رقاب أجدادها : من قرن ونصف قرن فى « رشيد » . ومن قرن وربع قرن فى مياه « نفارين » . ومن ثلاثة أرباع قرن فى غرب الدلتا ، يدحر جيوشها مرة إثر أخرى . فى حين لا يعرف أحد للجيش البريطانى إلا أنه يحارب دائماً على مبعدة من دياره ، وحتى آخر جندى من جنود حلفائه !

الطابور الخامس وحدة تصطنعها إنجلترا إلى جوار وحداته ، و « خيالة سان جورج » أو الذهب الإنجليزى عملة تضيفها السياسة إلى عملاته ، فإذا كان وحده بغير حلفاء له فى شمال فرنسا ، انسحب على سفائن الصيد ، فى التماس النجاة ، مكللا بالعار الإنجليزى من « دنكرك » !

ولما تلاقى الجند الإنجليزى بدباباته وطائراته ونسافاته فى القناة مع شباب الجامعة والمتطوعين ، كان الإنجليزى يبكى وكان الفدائى المصرى ينتصر ...

ففيم سقطت هذه الكلمة من فم الوزير الإنجليزى على ثرى مجلس العموم ، إلا أن تكون دعوة للحرب ؟

كان تعليق « أحمد عصمت » على هذه المقالة من منطقه وطريقة حكمه، فهو كان يدرك أن الإنجليز يريدون ليشعلوا الحرب الرسمية كما أشعلوها من سبعين عاما ... لتشبه الليلة البارحة ... ويعود المصريون من جانب والإنجليز والملك من جانب آخر ، سيرتهم الأولى منذ سبعين عاما ...

بحذاء ذلك الاتجاه نجم الاتجاه المقابل . بل المماثل ، لاستدراج قوات البوليس المصرى إلى منطقة القناة ...... فحسب المصريون أنهم يجرون البوليس ثمة ليورطوه فى الهلكة ، فيذبحوه أو يأسروه . فيزلزلوا أوتاد الأمن بالبلاد ، وتحدث بها مذابح كمذبحة الاسكندرية ليحتلوا مصر كرة أخرى ، لنفس الدعوى ! !

كانت مصر آنئذ تتقلب على الجمر ، وكانت أنباء الأسرى والشهداء ، تدخل الأسى صباح مساء . على كل نفس ... ومحطات الإذاعة المصرية لا تكف عن ترجيع تلك الفواجع ، ومصر فى برحها وشدتها تحس بوحدتها ، فى العالم المتحضر ، كأنما أسلمتها الأمم المتحدة إلى أمة قاسية الطباع تنهل من دمها أو تخضع للعذاب والاسترهاب ، أو كأنما أخذت الأمم المتحدة غمة أو غفوة . فتركتنا وحدنا نسوى حساب الاستعمار جميعه على كرة الأرض ! !

وكانت مصادر الأنباء فى السر أو فى الجهر تطالع الناس بأن الشهداء يلقون للوحوش والطير فى العراء بعد إذ يستشهدون . وأن أمارات تقطيع أوصالهم بعد الموت ودلايل التعذيب قبلة ناطقة فى أيديهم وأرجلهم ، وأن الإنجليز يمثلون بهم على أعين زملائهم ثم يخلون سبيل الباقين منهم ليقصوا على مواطنيهم قصصهم ويدخلوا الهلع فى قلوبهم .

ودات يوم أطلقت الجنود الإنجليزية رصاصها على إحدى الراهبات الأوربيات فأردتها . وأذاعت إنجلترا فى العالم أن الرصاص الذى قتلها مصرى ، فتحدتها مصر طالبة لجنة دولية للتحقيق ، ولقى الضمير العالمى فى مصر على يدى ممثلى أمريكا ماكرم وجهه ، واضطرت إذاعات إنجلترا إلى أن ترجع القهقرى .

ونبشت قبور المسلمين والمسيحين فى الاسماعلية بدعوى البحث عن أسلحة ! ونشرت الصحف صور الأسرى مصلبين إلى جذوع الشجر ، لتطالع المصريين والعالم أجمع بآثار ، بل بآثام ، واحدة من الأمم المتحدة ، تزعم أنها تنزعمها !

عاشت مصر فترة استشهاد ستبقى فى جبينها كالنور الإلهى ، أو هى النور الإلهى نفسه . يشع من أبطالها كما شع من قبل فى الحواريين والصديقين والشهداء .

وفى ١٤ من يناير سنة ١٩٥٢ ولد للوطن واحد من هؤلاء الصديقين ، ليست حياته فى عالمنا إلا معنى كريم ، حقق على الطبيعة وطبق فى العمل ، وحي فى رجل . تلاقى مظهره ومخبره فى مزاج من المزايا لإعداد بطل ، لم تكن على قصرها إلا انبعاثة عجلى نحو الخير . فلم يقصر عنصر واحد من عناصرها عن أن يكون مثلا للناس ، أو يتخلف عمل واحد من أعمال صاحبها عن أن يكون فضيلة .

وعندما تجتمع فضائل المثل العليا فى اللحظة الحاسمة ، ينتج من حسابها مجموع يفوق الحساب ، بما فيه من عنصر فوق الانسانى ، وعلى هذا الأساس يفوق البطل نفسه .



الكتاب الخامس

الطيار في الجنة

الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات

أحمد عصمت

الباب الأول

العــــام الجديد



أيها الفتيـان :

سواء منكم الكادحون فى حقول الوادى وصحرائه ، أو المنصرفون إلى التحصيل فى جامعاته ، أو العمل فى مصانعه ، أو المتعبدون فى صوامعه أو جوامعه ، أو المحلقون فى سماء مصر الصافية أو فى الخارج ، على متون طائرات مصرية ، من صنع بلادكم ، أو الضاربون فى عرض البحر فى سفن مصر الحاملة تجاراتها ومصنوعاتها إلى أمم العالم ، وسواء الناظرون منكم إلى سماء مصر الصافية التى تربط البصر والفكر بصفاء الله ، أو الجالسون إلى مدافىء الشتاء عندما يتهور الليل أو يتنفس الصباح : اقرأوا الكلمات التالية منعمين النظر ، مسترسلين فى التأمل ، فى خشوع وتهجد ...

فإذا ترقرقت الدموع فى مآقيكم ، أو انهلت على خدودكم ، فحذار أن تكون دموع الجزع لمن خلدتهم مصر من الأبطال والشهداء ، شهداء دينكم ، دين هذا الوطن الذى عبدتم فيه معنى من معانى بارئكم وحاميكم . بل لتكن دموع المتعبدين لله وللوطن .

ففيما يلى ذكريات شهادة ، وفناء فى الله وعبادة .

ويا فتيات مصر :

أقرأن هذه الأسطر قراءة كل ما هو سماوى ربانى ، وأقرئنها أبناءكن وأحفادكن ، عابدات قانتات :

لقد سلت سيوف الإمبراطورية البريطانية التى تتحكم فى القارات الخمس على شباب أمتكم فى منطقة القناة . وكانت أمم الأرض تبصر بريقها كلما طيرت الأمواج أنباء استشهادهم فى جوف الليل أو بكور النهار .

وفى حين كانت مصر تخب فى هذه الحرب الظالمة وتضع ، ويلتى أشبالها الحتوف من نصال السيوف ، هزت الحضارة المعاصرة لنا أكتافها ، والجريمة الكبرى ترتكب على أعينها ، فى الأبرياء وفى الشهداء . وفى الحضارة الإنسانية جميعها .

لن نعيد على أسماعكم ذكريات نقشت فى شغاف كل قلب ، وجرت فى كل دم ، وستنحدر إلى أبنائكم وأحفادكم مع الدم الذى يجرى فى أصلابهم ، ولكننا نقص عليكم بعض القصص ، عن بعض أيام ، لتروا الأشياء كما رأيناها وكما عاش فيها شهداؤنا يوما بعد يوم ، ولتنقلوا إلى الأجيال المقبلة عظات تلكم الأيام وروح عظائمها .

اذكروا دائماً فى معارض الشجاعة « أن التقاليد الحقيقية للأفعال الناجحة ـ على ما يقول بول ڤاليرى ـ ليست فى أن نعيد ما صنعه الآخرون بالذات ، وإنما هى فى إحياء الروح الذى صنع هـــذه العظائم والذى سيصنع أمثالها فى الأزمان التالية . »

ولقد تكون المثل العليا من الفعال الباهرة ، كالأنجم الزاهرة ، لا ترقى إليها المعارج ، لكن فيها لدى البأس ، وعند السرى ، دليلا مرشداً .

والأمم كالرجال لا تهرم ولا تهزم ، ولا تضل فى المفازات ، إلا إذا فقدت نجومها الهادية من مثلها العالية . وإذا كانت العبقريات لا تقلد فهى دروس تدرس ، فى أمثال تضرب ، ليهتدى بهداها .

أمامكم فى مستقبل الوادى صفحات بيض لم تسطر بعد . فاكتبوها فى ضوء ما علمكم أبطالكم .

اكتبوها فى الدفاع عن الوطن تكونوا قرة الأعين الساهرة عليكم من الشهداء كالأنجم الثاقبة تراقبكم من السماء .

اكتبوها فى معارك الحروب .

اكتبوها بكل إقدام فى ميادين الحضارة كالصناعة والتجارة والزراعة والطب والعلم والمال وكثير سواها .

اكتبوا فى الطب سطوراً جديدة من تضحيات الأفراد فى سبيل الجماعة . وشعبنا مريض يترقب من يطب له ويداوى أدواءه .

اكتبوا فى العلم ، الاختراعات الحديثة ، والأبواب الجديدة من تضحية الجسم فى سبيل الروح ، وتضحية النفس الواحدة فى سبيل الملايين ... وليس كالقدرة حافز ينفذ من القلب إلى القلب ويحبب العلم بالعمل والعمل بالعلم .

اكتبوا فى الاجتماع والاقتصاد ، صفحات من الشجاعة وإنكار الذات ، والعزوف عن الملذات ، وروح الفريق فى العمل ، فيد الله مع الجماعة .

اكتبوا بل اعملوا . فى أضواء مثلنا العليا التى تغمر الأرجاء بالضياء ، وعندما تصنعون مخلصين ستكون يد الله فوق أيديكم .

والكلمة الأخيرة لم يقلها أحد بعد . فمصر تنتظر .

لا تنوا ولا تقنطوا مخافة أن تفشلوا وتذهب ريحكم . فمن معارج

الحضارة معارك الطلائع . سواء منها معارك الانتصار ، أو ما يشبه إلى البعض أنه بوادر هزيمة ، أو هزات قلق .

وعندما تدعو السماء الثرى إلى التقدم ؛ تهتز الأرض وتربو ، كمثل الدفء فى الشتاء والحياة فى الشجر ، تسير الدنيا بهما إلى الربيع فى مواكب صاخبة ، من الحالاوت المتعاقبة ، فى أسابيع الزوابع ؛ وكمثل ذلك جسر الحضارة تجرى عليه ســـنة التقدم بالوثبات الموفقة ، أو الكبوات المتعالية ، أو السقطات المتتالية ... إلى الأمام .

وحياة الأمم كحياة الأفراد، وككل شىء ، تؤخذ بجمعها لا بجزء منها ولا بجزىء . والأمم لا تنتصر بالحيلة ولا بالانتهاز ولا باختراعات الساسة . ولكنها تنتصر يوم توهب لها إرادة الانتصار ، فتكافح الكفاح المرير الشاق . فإما بلغت غرضها ، وإما كان الكفاح فى ذاته نصراً لها .

رددوا أيها الفتيان والفتيات ذكريات القتال . فقد أصبح لكم ـ هنالك ـ فى مكان الاستعمار ، مقابل من آيات الفخار ، واذكروا فى نفس المقام نفس الكلام الذى وجهه « أبراهام لنكولن » إلى رفاقه على أرض معركة « جتسبرج » حيث مقابر الجند الذين قضوا على نظام الرقيق وزمان الاستعباد . فكأنما هذه الكلمات لنا ، أو قيلت ها هنا :

« منسبع وثمانين سنة أنشأ آباؤنا فى هذه القارة أمة جديدةقامت على الحرية وكرست حياتها للمبدأ القائل إن الناس جميعاً خلقوا متساوين . »

« ونحن الآن مشتبكون فى حرب أهلية كبرى تمتحن هذه الأمة، ليظهر ما إذا كان فى وسعها أو وسع أى أمة أخرى قامت على هذا الأساس وكرست نفسها له ، أن تعيش طويلا » .

« وها نحن أولاء قد اجتمعنا فى ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب

وجئنا لنكرس جزءاً من هذا الميدان ليكون المثوى الأخير لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم لكى تحيا الأمة . وإنه لمن اللياقة والسداد أن نفعل ذلك ».

« على أنه من وجه أعم لا يمكننا أن نكرم هذه الأرض أو نضفى عليها قدسية أخرى فان الرجال الشجعان ـ الأحياء منهم والأموات ـ الذين قاتلوا هنا ، قدسوها تقديساً أعظم من أن نزيد عليه أو ننقص منه بقوتنا الصغيرة . »

« سوف لا يأبه العالم كثيراً أو يذكر طويلا ما نقوله هنا . ولكنه لن ينسى ما فعله هؤلاء الرجال هنا . ولذلك يجدر بنا نحن الأحياء ، أن نكرس أنفسنا للعمل النبيل الذى ساهم فى سبيل تقدمه أولئك الذين حاربوا هنا . نعم يجدر بنا أن نكرس حياتنا للقيام بالواجب العظيم الذى لا يزال أمامنا . فنستمد من هؤلاء الأموات المكرمين إخلاصاً متزايداً للمبدأ الذى بذلوا فى سبيله أكثر ما يمكن من إخلاص . ونعقد العزم هنا على ألا تذهب أرواح هؤلاء الأموات سدى ، وعلى أن الحرية بفضل الله ستبعث فى هذه الأمة بعثاً جديداً . وألا تمحى من الأرض الحكومة التى يقوم بها الشعب فى سبيل الشعب » .

* * *

كانت صلوات الشكر لله العلى القدير تتصاعد من قلوب البشر فى ذكرى ميلاد السيد المسيح ، وفى ليلة العام الجديد من سنة ١٩٥٢ ، ذاكرة بالخشوع والخضوع إله المرحمة ... فى حين كانت دماء مصر تسيل أنهاراً فوق ثراها .

لن نشق عليكم بالتفصيل الطويل ... فإليكم صورة مصغرة لما قاسته مصر فى بضعة أيام ومائة من تاريخها ، حاربتها فيها إنجلترا بشتى أسلحة العصر ، فلم تكسب إنجلترا ولم تخسر مصر .

بلى . خسرت إنجلترا خسار من إذا واثق غدر . . . من ينبش النساء ويقتلهن ، ويقتل الأطفال ، ويقتل جنود البوليس ، ويقتل الراهبات ، ويشد بالسيف على تلاميذ الجامعات ، ويصنع المثلات بالأسرى .

وكسبت مصر ثقتها فى قواها يوم ثبت النفر الذين ثبتوا ، فلا تهزم الأمم ولا الأفراد إذا لم تسلم نفسها بالانكسار ، فاذا سلمت نفسها فقدت روحها فوق فقدان معاركها : —

أول يناير = القائد العام الإنجليزى فى منطقة القنال يعلن تصميم بريطانيا على تنفيــذ حلف الدفاع عن الشرق الأوسط وعزمها على الاحتفاظ بمركز قيادتها فى القنال إلى أن تشترك مصر فى هذا الحلف .

فى أخبار ذلك اليوم أن الفدائيين حاولوا اغتيال البريجادير « اكسهام » فى منطقة الاسماعيلية بالقاء ثلاثة قنابل يدوية على سيارته .

وكان الخبر آية تمرس الفدائيين بتحسس الأخبار ، إذ استطاعوا أن يتخذوا من أنفسهم رصداً لحركات قواد العــدو .

ولو قد أصيب « اكسهام » لكان أول « بريجادير » إنجليزى لقى الموت على أيدى بنى الوطن ، لكن هــذا السبق لم يكتب يومذاك لأحد . . . وإنما أجلته السماء ليوم موعود .

وفى اليوم نفسه ، نشرت الصحف صوراً لجنازة « عادل محمد غانم » الطالب بكلية الطب محمــولا على أعناق زملائه بعد أن عاد شهيداً من ميادين القناة . . .

سيتساءل البعض كيف كانت تقع هــذه الأنباء فى فاتحة العام على الشعب الإنجليزى ، لو نظر إلى شبابنا وطلابنا ، وهم يهبون أرواحهم لأشرف قضية ، قضية الحرية ، نظرته إلى شبابه وطلابه . . . !

أما نحن فقد كنا ندرك كيف تقع الأنبــاء مواقعها لدى الشعب

الإنجليزى الذى حارب الرق والاستعباد إذا وقعا على رجل واحد ...
وما زال يحارب لحساب الرق والاستعباد إذا وقعا على شعب كامل ...

٢ من يناير = نسف الخط الحديدى البريطانى – قنابل مولوتوف – قتل عشرة جنود إنجليز وإصابة كثيرين .

٣ من يناير = التوسع فى التدريب العسكرى – إنشاء مدارس وساحات للتدريب . وإعلان الحكومة والوزير المختص بشئون كتائب التحرير أن لا تدريب للفتيات على الحرب بل سيكون تدريبهن على العناية بالجرحى والتمريض .

تدمير مستودعات البترول بمعسكرات جنيفة والتل الكبير – ندب الأمم المتحدة ، مستر راو ، المحقق الدولى للتحقيق فى إجبار الإنجليز للعمال على العمل برغمهم .

٤ من يناير = معركة دامية بين الإنجليز والبوليس المصرى والأهلين فى السويس تستمر خمس ساعات ؛ ٢٠ قتيلا و ٤٠ جريحا من البريطانيين . إصابة ١٨ من البوليس والأهلين بجراح .

نسف محطة المياه البريطانية فى معسكرات الإشارات وإحراق دبابتين ومصفحتين وقتل جنودهما .

احتجاج السفارة البريطانية على السلطات المصرية لإنذارها تاجراً إنجليزياً بمغادرة البلاد لتعاونه مع الإنجليز بالقناة .

٥ من يناير = الإنجليز يحاصرون السويس ويعتدون عليها بقوات ضخمة تدعمها عشرون دبابة ؛ ٢٥ قتيلا و ٥٥ جريحا من البريطانيين ، استشهاد خمسة من المصريين و ٤٤ جريحاً – وابل من رصاص الانجليز ينهمر على المستشفى الاميرى وعلى سيارات الإسعاف وناقلة المرضى .

٦ من يناير = الإنجليز يعزلون منطقة القنال عن الأراضى المصرية. قطع المواصلات الحديدية عنها . منع دخول الصحف إليها . نسف نادى الضباط وحرق سيارتين بريطانيتين وقتل ستة من جنودهما .

الإنجليز يحرقون خمسة منازل ، مصرع ثمانية من ضباطهم .

٧ من يناير = مصرع ثمانية عشر بريطانيا من سلاح الطيران فى كمين أعده الفدائيون ، الإنجليز يحتلون البقية الباقية من منطقة كفر أحمد عبده ويجلون سكانها عنها بالقوة .

هكذا كانت خطة الجيوش البواسل فى الأسبوع الأول من افتتاح العام الجديد ، خطة التنقيب والتخريب . واقتطاع منطقة السويس من أرض مصر . واحتلال منطقة كفر أحمد عبده بتمامها وإجلاء ساكنيها كافة .

فأى امتحان امتحنته قلوب المصريين فى ذلك الزمان ! يشهدون على أعينهم ويحسون فى أبدانهم اقتطاع الثرى المصرى كما تبتر الأعضاء من الجسم الحى !

° ° °

٨ من يناير = صورة فيلق من الفدائيين هبوا يبتدرون القتال فى بيداء السويس ومعهم بنادقهم وقنابلهم اليدوية

الرئيس السابق مصطفى النحاس يزور بطريرك الأقباط لتوطيد الأخوة بين عنصرى الأمة التى يكيد لها الإنجليز .

معركة بين الإنجليز وبين جندهم « الموريشان » تسفر عن قتل وجرح مائة بريطانى .

وزارة الخارجية الأمريكية توفد مبعوثين إلى السودان لزيارة الأقاليم والوقوف على الاتجاهات السياسية للشعب السودانى .

٩ من يناير = نسف معسكر الأغذية بالسويس والمحطة اللاسلكية بالاسماعيلية - تدمير الخط الحديدى البريطانى ومهاجمة سيارة وقتل ٦ من جنودها ، الإنجليز ينسفون كوبرى المعاهدة انتقاما من المصريين ويعتدون على جرك الكوبرى - القائد « أرسكين » يردد قول القائد العام إن الانجليز باقون فى القنال .

١٠ من يناير = مقترحات الملك ابن السعود لحل النزاع المصرى البريطانى - مهاجمة قافلة من ٢٠ سيارة بريطانية وقتل ١٩ وجرح ١٦ من ضباطها وجنودها ، ١٠٠٠ جندى و ١٠٠ دبابة يشتركون فى الحملة الارهابية - هدم ٦٠ منزلا فى منطقة جنيفة - فقيد الوطن الطالب « عباس سليمان الأعسر » بكلية التجارة .

١١ من يناير = الانجليز يطلقون مدافعهم على دار محافظة الاسماعيلية وعلى استراحة شركة القنال فى أثناء وجود مديرها ورئيس مجلس إدارتها .

١٢ من يناير = عرض مقترحات جديدة على مصر خلال عشرة أيام - أمريكا موقنة أن مصر لن تغير موقفها من الدفاع عن الشرق قبل الجلاء - ٤٠٠ جندى بريطانى تهاجم قرية أبى صوير ، الفدائيون ينسفون الخط الحديدى عند الأدبية المرة الحادية عشرة .

١٣ من يناير = معركة عنيفة فى التل الكبير بين الإنجليز والوطنيين ورجال البوليس - قتل ٢٠ ضابطا وجنديا بريطانيا وجرح ١٢٠ - استشهاد ٦ من الفدائيين وإصابة ١٤ بجراح ؛ الفدائيون ينسفون خطاً حديدياً ويهاجمون قطاراً حربياً ويقتلون ٣ من حراسه ويجرحون ٤ منهم . ١٥٠ جندياً يحاولون احتلال التل الكبير - ١٠٠٠ جندى يهاجمون القرى بطريق أبى صوير - إصابة المستشفى العسكرى - تصدى الأهالى للقوات البريطانية . واشتداد المعركة وعبور البريطانيين ترعة الاسماعيلية على

عائمات وإحراق قريتى الحمادة والمزارعة ـ سيارات الصليب الأحمر توالى نقل القتلى إلى أن أمر الجنرال « أرسكين » بوقف القتال ـ صورة لجنازة صامتة لشهيد الوطن بجامعة فاروق بالأسكندرية « عباس سليمان الأعسر » يتقدمها مدير الجامعة ووكيلها والعمداء والعلماء ـ رسالة مدير مكتب إحدى الصحف من لندن وفيها ما يلى : ـ

« نفت الدوائر الرسمية البريطانية رفض اقتراح غير رسمى كانت الحكومة المصرية قد عرضته يقضى بجلاء القوات البريطانية عن قنال السويس إلى قطاع غزة . وتتوقع الدوائر البريطانية المطلعة أن تقبل الحكومة أى مشروع معقول للجلاء عن منطقة قنال السويس ، بشرط أن يتم الاتفاق على صيانة المنشآت العسكرية فى قاعدة القناة »

الاثنين ١٤ من يناير = الإنجليز يعدمون ٧ من أسرى معركة التل الكبير رميا بالرصاص ـ تجدد المعارك بين القوات البريطانية والأهلين ورجال البوليس فى التل الكبير . سقوط ٤ قتلى من الإنجليز وإصابة ٤٥ بجراح واستشهاد ٤ من الفدائيين وإصابة كثيرين بجراح .

صور نسف الخط الحديدى .

إعلان من الإخوان المسلمين عن استشهاد شهيدى الوطن المجاهدين الطالب « أحمد المنيسى » بكلية الطب والطالب « عمر شاهين » بكلية الآداب . الاحتفال بتشييع الجنازة فى الزقازيق وفى مصر .

إعلان عن تشييع الجنازة من الإخوان المسلمين بمنطقة أبى حماد .

وهكذا انصرمت أيام الأسبوع الثانى من يناير باتجاهات أخرى فى السياسة والحرب .

أما فى السياسة فقد راحت وزارة الخارجية الأمريكية تحقق لحسابها وتستفقه الأمر فى السودان ، وتقدمت دولة عربية شقيقة تسفر بين

الفريقين ، وفى نفس الوقت أذيع فى لندن ما يشير إلى أنهم يقبلون أى مشروع معقول للاتفاق بشرط صيانة المنشآت فى القنال .

وأما فى الحرب فقد فقدَ الجيش البريطانى أعصابه وآدابه ، وأخذت فيالقه تتحرك بتشكيلاتها العسكرية ودباباتها وعائماتها ، تهدم المنازل وتحتل المناطق ، يبلغ عددها الألف جندى والمائة دبابة بل وتطلق الرصاص على مقر الحكومة المصرية فى الاسماعيلية .. وتعدم الأسرى . !

وانتقل ميدان المعارك إلى منطقة التل الكبير وأبى حماد وأعلن عن استشهاد شباب الجامعات فى التل الكبير وأبى حماد . انتقل مركز الثقل إلى هناك . واتجه إليه قلب مصر وأسماع أمم الأرض ، تتسمع خفقانه من محطة الإذاعة خمس مرات ، وجه النهار وزلفا من الليل ، كما تستمع إليه كلما أذاعت أخبارها مرات ومرات سائر المحطات فى العالم .

وفى حين كانت جنازة شهداء الجامعة تسير فى طرق القاهرة . وكانت مصر تثأر لشهدائها الذين يلقون الشهادة فى الصفوف ، أو الذين أذيع أنهم لقوها فى أتون الأسر الإنجليزى ، حيث يجب لهم أمان الأسرى من المحاربين ، كان للسماء وحى يوحى .



الباب الثاني

١٤ من يناير



تعالى النهار فى تخوم أهرام الجيزة يوم ١٣ من يناير حيث غادر «أحمد عصمت» بسيارته رهطا من أصدقائه ساعتين كاملتين دون أن ينبئهم بأسباب غيابه أو مكان احتجابه ، ثم رجع اليهم والشمس لم تختمر بعد بخارها ، فكروا راجعين إلى القاهرة .

وكانت منطقة الأهرام مكاناً يتلقى فيه الفدائيون السلاح .

وقضى ساعات من الليل قبل أن يئوب إلى داره حتى إذا دخلها وآتوه عشاءه طعمه ، كما يطعم فى العادة عشاءه ، فى يسر وانشراح .

وحرر لأهله «شيك» بمبلغ خمسين جنيهــــا مصرياً يتسلمونها من المصرف . ولما طلب عامله مفتاح السيارة لإعدادها للسير غداتئذ ، تبسم رافضاً وحبس المفتاح فى جيب قميصه ، وقصد مخدعه ، والمفتاح معه ، حتى إذا غدا الغد ، ركبها شعثاء من غبار الصحراء .فلم يظهر على ما تحويه أحد.

وأصبح كــكل صـــباح ، فى حديث أهله واطلاع صحفه واستمتاع باللحظات الهنيئة التى يعيشها ، ثم غادر داره بعد إذ استقلت الشمس ، فى

ميعاده ، لم تبدر منه لأهله ولا لولده وهم يبرحون دارهم إلى مدارسهم ، بادرة تشي بشيء عزمه ـ فانطلق بسيارته راضياً مرضيا فى إشراق أمله ، ورجاء أهله ، إلى القاهرة ، حيث تسلم من مصرفه عشر جنيهات فى التاسعة صباحا .

ثم قفل راجعا إلى مطار ألماظة يتناول الشاى فى أمنة واطمئنان ، أثرآ عنه ، كا وصفه فى الصحف زميل له شهده فى مقصف المطار .

ثم يمم طريق عين شمس فانحدر إلى قناة الاسماعيلية . فبلبيس ، فأبى حماد ، بعد أن خلف إلى صهره ، وإلى مصر معه ، بأجيالها المتتابعة ، وصية الجهاد والاستشهاد .

أخي حسين

إن حبي لوطني هو الذي حبب إلي سفك الدماء

دماء الغاصب المستعمر البغيض - فذهبت اليهم غير منتمٍ

إلى هيئة أو جماعة . ذهبت اليهم بدافع إلهي وإيمان

قوي - ذهبت اليهم مسرورا فرحا وكأني ذاهب إلى رحلة

صيد مثل الرحلات التي كنا نقوم بها .

وأريد منك أن تعلن إلى كل مصري أني شاب متزوج ولي ثلاثة

أطفال ولي أمي وأخواتي ومع هذا فقد ضحيت بنفسي

ليعيشوا هم أحرارا في بلدهم فالحرية لا تمنح ولكنها

تؤخذ بأعز التضحيات .

إلى اللقاء في كلتا الحالتين إن مت أو عدت

أخيك

أحمد

أخى حسين

إن حبى لوطنى هو الذى حببنى إلى سفك الدماء . . . دماء الغاصب المستعمر البغيض ، فذهبت إليهم غير منتم إلى هيئة أو جماعة . ذهبت إليهم بدافع إلهى وإيمان قوى . ذهبت إليهم مسروراً فرحا ، وكأنى ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التى كنا نقوم بها .

فان مت فأعلن إلى كل مصرى أنى شاب متزوج، ولى ثلاثة أطفال ، ولى أمى وأخواتى ، ومع هذا فقد ضحيت بنفسى ليعيشوا هم أحراراً فى بلدهم . فالحرية لاتمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات .

فالى اللقاء فى كلتا الحالتين إن مت أو عدت .

أخيك أحمد

* * *

اقرأوا أيها الشباب هذه الكلمات فكلكم أخ لأحمدعصمت . وكلكن له أخوات . وأذيعوا فى مهاب الرياح الأربع ، أن الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات ، وعندما يقدم الفتى منكم حياته لا يقدمها باسم حزب ولا باسم جماعة . . ولكن باسم أمكم الكبرى ... مصر ...

وأين الأحزاب والجماعات من أحمد عصمت ومن أى شهيد عندما يستشهد !

أين الأرضى من السماوى !

أجل أيها البطل : غير منتم لحزب أو إلى جماعة ، فقد كانت مصر وحدها قبلتك ، حيثما كنت وليت وجهك نحوها ، دون سواها .

ولا ضد حزب أو جماعة : فقد كنت كلك لمصر كلها ، وضد أعدائها كلهم . . . وفىء الظلال من أشجارك ، وجدران دارك ، شهداء على استبشاعك أن يقتال المصرى أخاه المصرى ، سواء أكان من هؤلاء أو هؤلاء ، أو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ولكن . إذا كانت لك زوج وأولاد وأم وأخوات . . فأين هم من مصر كلها ؟ ستهبها حياتك وأقل من ثلاثين عاما من العمر . وستهبك قلبها وأكثر من ثلاثين قرناً من الشكر ، أو الذكرى .

والحرية لا تمنح لأنها الوجود الإنسانى الحق ، وهو لا يمنح . وإنما يحيا الانسان بالجدارة ويبقى بالاقتدار وبالتضحيات . وفى موت الأحرار حياة الحرية .

وكلما حوربت الحرية اهتزت وربت ورواها دم الشهداء ، وخدمها الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت صيحة الحرب عليها دعوة النصر لها .

والحرية لا تستجدى ولكنها تنتزع .

وإنما هى رحلة صيد تذهب إليها بجنان ثابت ، كأنما الصيد الذى تقر به عينك هو البذل الذى ستبذل به نفسك . وما كنت لتسفك دماء البشر . بل حبك لوطنك هو الذى حبب إليك سفك دماء المستعمر البغيض ، فذهبت اليه مسروراً فرحاً كما قلت ، وقد صدقت . لأنك قد صنعت .

لقد ضحيت بنفسك من أجلنا لنعيش فى بلادنا أحراراً ، فأصبحت من صناع التاريخ . وآباء الوطن . وأصبح اسمك حرفاً من أحرف الهجاء فى « نهضة منتصف القرن » .

ما أعوامك الثلاثون إلا أعوامها الثلاثون بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، فحياتك هى عناصر حياتها قد سويت رجلا . وإذا كانت بقية حياتك خلوداً فى الرفيق الأعلى ، فستخلد الانتصارات المتلاحقة هذه النهضة ، وستخلد مصر ، خلود النيل على صفحات الأرض الطيبة التى كرمنا الله بها .

لقد تلقينا ـ جميعنا ـ وجودنا من يد مصر . ولم يعطها سائرنا شيئا ، إلا أن يكون سياسة ، أو كلمات ، أو دعوات ، ووجدتنا مصر أحرص الناس على حياة .

أما أنت ، فكنت من أنت ، فى مواقفك الأخرى . تعاملت متعاليا حتى مع أمك الكبرى ! ستعطيها قدر ما أخذت منها . . لتقف على قدم المساواة معها .

سننقل للتاريخ منك هــذا الكتاب ، بمثل ما تلقاه الحفظة والنقلة والخطباء والشعراء والكتاب والطلاب ، عاماً بعد عام ، ليكون لنا ولحفدتنا آية على الشجاعة وابتداع اليراع . لم يؤلف مثلها سفر فى نفس العام أو قبله بأعوام . ولا بلغ مبلغها من أفئدة الأمة كلام . بما فيها من الروعة والجلال . ومن المحبة وإنكار الذات . وبما فيها من الشعر والخيال ، ومن الواقع الذى ليس مثله واقع . وبما فيها من أم الكتاب فى فلسفة الحرية والاستقلال . . بل بما فيها من الحياة عند تضحية الحياة .

هذان السماوى والإنسانى معا ، لم يجتمعا فى التاريخ فى كتب كثيرة مثل كتابك .

وما التأليف ولا الرسالات بالطول أو بالعرض . ولكن بالبلاغ النافع للجيل وما يعقبه من الأجيال .

ألا . . وما كان أنفعها آية تلك التى حفظها الشعب ، عن ظهر قلب ، مذ طلعت بها عليه صحف الصباح ، ورددها المذياع ، وتناقلتها قاعات الجامعات وساحات الجوامع .

وإذا كانت شجاعة الفكر هى الوليد البكر لشجاعة النفس ، فقد اجتمعت فى قلبك الشجاعتان ، كما اجتمعتا من قبل فى فئة قليلة وردوا حياض المكاره ، فنهم من قضى نحبه ومنهم من انتظر ليتم رسالته أو يموت دونها .

* * *

تلك كانت آخرة الكلمات التى جرى بها قلم أحمد عصمت ولعلها كانت

آخر ما يتردد فى وجدانه . فهى كمثل ما كان يجرى دائما على لسانه (إن مصر لا تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال) هى الكلمات التى صحبته ، وبرحت به وعذبته ، عندما طوت عجلات السيارة الثرى المصرى إلى حيث المعارك الدائرة فى منطقة التل الكبير من أيام .

سار فى طريق الاسماعيلية مستأنيا ـ فلكم كان يؤثر الأناة ـ ومشى كما لم يمش أحد من قبله ولا من بعده ، إذ كتب بيده عن نفسه ما كتب فى اللوح المحفوظ على نفسه .

قصد بسيارته لا ليكر ويفر ، أو يلتمس النجاة ما استطاع . ولكن ليجابه الخصم فيبلغ غرضه . ويواجه الموت بذاته وإن كان لا يعود .

وبلغ شاطىء المجرى الذى ألف أن تسير سيارته عليه فى الأيام الخالية فى أرض خالية من العدو ، فإذا المكان ـ لأول مرة ـ تغزوه قوات إنجليزية حاشدة ، عبرت اليه قنطرة عائمة ، مدتها منذ ساعات .

فلقد فعل الفدائيون الافاعيل بهم فى بكور الصباح ، حين كمنوا عند الظاهرية بين حمادة والتل الكبير لداورية مكونة من اثنى عشر جنديا وضابطا بملابس جنود المظلات . وما هم أن اطلعوا عليهم فأخذوهم أخذة رابية فقتلوهم كافة ، وغنموا سلاحهم وأوراقهم الشخصية التى كانت معهم وجهازا للاسلكى كان يحمله الضابط . وأقبلت فرقة المصفحات لنجدتهم فألقى عليها الفدائيون القنابل اليدوية ، وعطلت بعض سياراتها . وتمكن الفدائيون من الفرار بعد أن أصيب واحد منهم أصر على حمل جهاز اللاسلكى ، لكنه استطاع بالقنابل اليدوية أن يعطل السيارات المصفحة وينجو .

كانت القوات الإنجليزية تنقل قتلاها مذمومين مدحورين على القنطرة العائمة ، حين وصل أحمد عصمت ووراءه بضع سيارات منها سيارة نقل

ركاب كبيرة ملأى بالراكبين . فإذا بالسيارات المصرية تتوسط عسكر العدو أمام نقطة تفتيش استحدثها العدو فى ذات المكان .

مكث أحمد عصمت فى سيارته حتى قدم الجند فقدم لهم جواز قيادة الطائرة وجواز سفره المصرى ، وكان يرتدى رداء الطيارين وعلى كتفيه جناحان ونصف جناح .

وكان يستصحب دائماً مسدسين واحداً فى جيب ردائه وآخر كبيراً فى سيارته ، ولم يعرف على التحقيق ما كان فى صندوق السيارة الخلفى أو تحت كرسيها .



وطلب جندى بريطانى تفتيشه ونبش سيارته .

فرفض أن يفتشه ، وأصر الجندى ، وأصر هو .

واستعصم واستعلى على التسليم للجندى البريطانى بحق التفتيش فى أرض الوطن .

أيقن الجندى أنه يلقى سيداً . فوق مستواه العسكرى ، بالأجنحة التى تعلوه . ولغته الفصحى . ولهجته العالية . بل كان فوق مستواه البريطانى ، والاستعمارى ، بل فوق كل مستوى ، بشخصيته التى بلغت ساعتئذ ذروتها ، وعنفوان عزتها وقوتها ، فى لحظة ميلاد البطل . . . فدعا الجندى القائد . فاذا هو قائد منطقة التل الكبير بتمامها ، الذى أطلقت عليه الصحف قائد مذبحة التل الكبير ، قد أقدمته

ومعه ياوره ، تلك القدمة هزيمة الصباح ومصايره التى كتبها عليه القدر .

فلما رمقه وقع فى نفســـه أنها لفتة من السماء فترجل من سيارته وتراجع إلى الوراء .خطوات معجلات ،وارتقى سيارة نقل الركاب فدخلها وقذف حافظة نقوده وأشياءه قائلا لركابها « أعطوا ما فى هـذه الحافظة لشخص مستحق » .

ثم شخص من فوره إلى القائد فى لحظات ، وتبادلا كلاما قصيراً ، سريعاً ، لم يسمعه الشهود وإنما شهدوا الانفعال من قائليه . لـكن الذى دار فى الخيال كان معانى كثيرة ، يسير علينا أن نتصورها :

فياله من صيد ثمين ، ساقته السماء لصياد مكين .

يالها من قربى لله أن يستشهد فى عدو الله ، عدو الوطن .

يا له من لقـاء لمصر المستميتة المستبسلة فى أبى حماد ، يمثلها نسر من نسور الشباب ، بجيوش الغزاة ، من البغاث المستنسرة ، ممثلة فى قائد المنطقة الأعلى ، قائد المذبحة .

يا له من ظفر مادى لرجل واقعى ، من أدواته الهندسة ، وحسبان الحساب .. وبين قواعده قول « كارليل » مؤرخ الأبطال :

« ليس واجبنا الاول هو التطلع إلى ما يتراءى لنا غامضاً من بعيد .. ولـكن واجبنا الاول هو صنع ما هو واضح بين أيدينا » .

بل من قواعده قوله هو ذاته « إن إنجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة » .

وها هو القائد كله بين يديه ، بنفسه وشخصه ! وهو رأس الجيش يعدل الآلاف فيه وعشرات الآلاف . والضربة فيه « ضربة أستاذ » تصيب إنجلترا فى صميم قلبها .

ولقد آن للصفحات التى وجهتها مصر إلى وجه الاستعمار أوان تتويجها بضربة قاضية ، وحان له ، هو ، تتويج حياته الملأى بآيات الشجاعة بتاج يكلل سابق أفعاله وخصاله ، يسعى بنفسه إلى مفرقه لو سدد الله يده .

وما هو إلا مصر بشمائلها وفضائلها ـ وما « البريجادير » إلا إنجلترا فى عنفوان عدوان الاستعمار .

وإذا كان سيداً من سادات مصر وأروحهم آلا ومالا ، وفضلا وبذلا ، فلا سيادة عنده إلا للشجاعة ، وقد حان تقديم برهانها .

فليكن السيد الجدير بفضائل حياته ، العظيم فى محياه ومماته .

ليقم بعمله فى سبيل الله لعله أن يحط الخطايا عن المخلفين الذين لم يجاهدوا كما تحمل السيد المسيح خطايا البشر .

لم يعد الفتى المرجو فى أهله أو جماعته ، بل أصبح أمل أمته ـ ولم يعد المطلوب منه أن يتزعم رهطا من الأخيار . بل أصبح المطلوب منه أن يتزعم الشهداء الذين كان آخرهم . فكأنما كتب عليه أن يكون كابرهم. وها هى ذى الفرص جميعا تلقى بنفسها بين يديه ، والفرص لا تمر مر السحاب . ولكنها تمضى كومضات البرق ...

كان يطن فى أذنه نشيد الأنشاد عنده « إن مصر لا تنال الاستقلال إلا على شواطىء القنال » . تلاحق سمعه هتافات أمه الكبرى ـ مصر : « هنا . قريباً من هنا . وقريبا من أيامنا . قدم روحه باسمى بطل الجيش المصرى « الأميرالاى محمد عبيد » ولواؤه الذين آثروا الفناء على أن يصعدوا فى الوادى فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ عند التل الكبير . وقد حان لك أن ترفع ذكرى كمثل ما رفع ذكرى فى نفس المكان وضد نفس العدو ... »

إنه يقف فى جفن الردى والردى يقظان ، وما فى الموت شك لواقف . . . ولكن ما الموت ؟ الموت هو الفناء ، وما أزخر الحياة فيما ليس فانياً ، وإن فى الأحياء لموتى هم ملايين الأضعاف الأحياء من الموتى ، والتضحية الكبرى فى سبيل الوطن عمل واحد ، يراه الصنديد بطولة ، ويراه الرعديد مغامرة . ويراه المؤمنون استشهاداً ، ويراه عباد الحياة مجازفة . . .

والناس بين هاتين النهايتين كالناس بين قطبى الأرض ، على درجات طول وعرض ، مختلفات من القرب والبعد . بين منطق الإنسانية العالية وبين منطق الذين يعيشون ليطعموا ويتكلموا .

وما عمر الحياة إلى جوار الذكرى ، إلا كعمر الإنسان إلى جوار الإنسانية . وأين أسماء الذين تدحرجوا على كرة الأرض من عهد آدم إلى اليوم ، من أسماء الأنبياء والشعراء والعلماء والهداة والأبطال .

* * *

لم يكن البطل غريباً فى الميدان الذى فتح له ، ولا كان أقل من فرصته . بل كان من مستواها . . . وعندما تصنع يد القدرة الصنيع النابه تقدر الرجال بمقـــدار الفعال ، فيتواءمون ويتلاءمون ، وتغدو العظائم كفؤها العظماء .

تراءت أمامه رؤى التاريخ الذى كان من حفاظه ورواته . فبدا له أن مصر وإنجلترا تتصاولان ، وتلافت ظروف الزمان والمكان ، فى موقع أعده القدر . من بطولات أهـــله فى السودان وهى حاضرة فى ذهنه . وبطولات « محمد عبيد » وهى حاضرة فى مكانه ، فإذا التاريخ المصرى المجيد قد تلاقى فى بقعة خالدة ، فصار صفاً من ورائه ، حيث العدو صف من أمام .

وإذا هو الذى ينهـد من الخطوط المصرية إلى هؤلاء الإنجليز الذين برزوا له .

فليبارزهم مبارزات على وحمزة وعبيدة بين الصفوف، إذ يلتقى الجمعان فى الزحوف...وليصرخ فتى مصر فى وجه العدو صرخات «عمر بن الخطاب» فى وجه «أبى سفيان» : «لا سواء ، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار» .

وليقذف فى وجه بريطانيا بكلمة مصر الأخيرة . فلن تسمعها من أحد كما تسمعها من لسان بطل : «لقد جربنا سياستنا معكم فـكانت تنازعاً وفشلا . وجربنا سياستكم معنا فـكانت قهراً وخديعة . فلم يبق لنا معكم إلا سياسة واحدة هى «أن ترحلوا ، وإلا فإنها الحرب من كل طبقات الشعب» . فأما نحن فسنموت لنحيا . وأما أنتم فإلى عذاب غليظ . سنحاربكم بما بقى فينا من دم لم تستصفه بعد وحوش الاستعمار . بأيدينا فإن قطعت فبأشلائنا . وبالسلاح . فإن عجزنا فبالحصى وبالحجارة . بأنقاض المعاهد التى تخربونها ، والمعابد التى تضربونها، والقرى والدور. وعلى الشواطىء والمزارع والرمال وفى كل مكان . وبكل شيء . فإما رددنا إلى مصر كرامتها. وإما رددنا للسماء وديعتها . والله أعلى وأجل» .

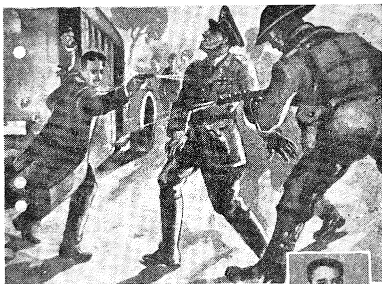
لا جرم إن ذلك ومثله كان حديث نفس البطل . ومن عجب أن تجد العمل الجليل فى حياة الإنسانية عملا عادياً فى حياة رجل ! !

فلقد صنع أحمد عصمت فى هذا المقام العظيم العالى ما يصنعه فى المقام البسيط العادى . .

فلو قد سئل من قبل فى غرفات داره عما يصنع غيره فى مثل موقفه لأجاب، فى اتزان ، وهدوء جنان، كالجواب عن مسألة من مسائل الحساب، بأن يصنع ما سوف يصنع . . . وهو فى التنفيذ أبرع وأروع . تسعفه الدقة الهندسية والاتزان العاطفى والاقتدار العملى ، على صنع الصنيع النموذجى للواجب ، مع الإتقان ، والاطمئنان ، ونسيان ذاته .

وكان رامياً لا يشوى

فتواقع الفريقان ، وواتاه المسدس الذى يحمله فى توفيق وتسديد . فبدر البريجادير برصاصتين فى قلبه فخر مضرجا بدمه ، وثنى باثنتين فى قلب ياوره الضابط فصرعه كمثله ، وأطلق فى نفس الوقت اثنتين أخريين على الجندى البريطانى . فتدهده الثلاثة صرعى يخورون . . لم تخطىء رصاصة واحدة مستقرها ومستودعها .





أحمد عصمت ..
الشهيد المثالى !

ولم يكد الثلاثة يقعون لوجوههم ، ويخلدون إلى الأرض حتى أحس البطل المصرى أنه قد أدى رسالته وناجى ربه كما ناجاه موسى عليه السلام « وعجلت إليك رب لترضى »

وانتصرت روح مصر فى التل الكبير .

ولو استأخر أجل البطل بعد ذلك لحظة من الزمان لعاش فى غير مكانه ، وبعد أوانه ، ولمـــا كان فى طليعة الرعيل الأول المشتاق إلى الجنة ، ولعاش كما يعيش الرجال العاديون ملايين وملايين ، ينتظر الموت على الفراش الوثير فى المضاجع .

أجل . وصدق رسول الله « لن يعمل شيء قبل حله أو يؤخر شيء عن حله » . ولـكل أجل كتاب .

والذى يبقى بعد أيامه كالذى يجىء قبل أيامه ، كلاهما يفقد عنصر الزمن من حسابه . فيفقد قواه ومعناه ، كالصفر يحيت الأعداد كانت إلى جواره ، أو الصفر قبل أن تـكون إلى جواره أعداد .

أبلس الجند الشاكى السلاح . وبهتوا . فخاصوا حيصة الوحوش ، ولم يجسر واحد ولا جماعة منهم على التقدم إليه حتى تصعد روحه إلى عليين .

وتفتحت أبواب الجنة للشهيد . فطغت هتافات الترحاب به على أصوات مدافع القوة البريطانية التى تفتحت ! فصعد بروحه الطاهر إلى الرفيق الأعلى إلى جوار « الطيار فى الجنة »[١] أول وآخر من لقبه الرسول « ذا الجناحين » : « جعفر بن أبى طالب » [٢]

ومات أحمد عصمت وسلاحه فى يده ...

وليست الهزيمة أن يموت ، وإنما كانت الهزيمة أن يستسلم .

وفتش البريطانيون الشجعان ملابسه ونبشوا سيارته كما أرادوا . ولـكن بعد أن خلفها لهم . وولوا مولولين بقتيلين وجريح هو البريجادير ، نقل إلى المستشفى العسكرى وأعلنت وفاته بعد أيام .

---

(١) من خطاب الأمام على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان .

(٢) (كان الذى رأيتم أحزننى قتل أصحابى حتى رأيتهم فى الجنة إخوانا على سرر متقابلين ورأيت فى بعضهم إعراضا كأنما كره السيف ورأيت جعفرا ملـكا ذا جناحين مضرجا بالدماء مصبوغ القوادم) حديث شريف

وحمل ١٤ من يناير اسم « أحمد عصمت »

ومن أولى بأيام التاريخ من « أحمد عصمت »

« أعلمتم قبل موسى من يد قذفت فى وجه فرعون عصاها »

« وطئت ناديه صارخــــة شاه وجه الرق يا قوم وشاها »

« ظفرت بالكبر من مستكبر ظافر الأيام منصـــور لواها »

« القنـــا الصم نشاوى حوله ورماح الهند لم تصح ظباها » (١)

* * *

وتعلم العالم كثيراً على أحمد عصمت ، وتعلم الإنجليز :

تعلم الإنجليز ، والعالم معهم ، أن المدافع التى فتحت أفواهها على البطل المصرى لم تكن علامة القوة بل كانت آية الانخذال ، فلو كان فيهم رجل واحد شجاع لتقدموا اليه بعد أن فرغ رصاص مسدسه ليأسروه .

وتعلم الإنجليز ، والعالم معهم ، فى ثرى أبى حماد ، أن المصرى إذا لقى الإنجليزى بل القائد الإنجليزى ، وجها لوجه ، ورجلا لرجل ، بل لرجال ، كانت الدولة لنا وكانت الدبرة عليهم .

وتجلت لهم آية المستقبل فى علاقاتنا معهم : أن هذ الشعب — عندما يدعو الداعى — معتورهم بكل خافية من السلاح وبادية ، وأن بنيه قد أعدوا للأمر عدته تتبارى فيها كل الجماعات ، وأن الآباء كالأبناء ، وأن الموظفين كالطلاب كالعمال كالزراع كالمصريين قاطبة ، قد أجمعوا المسير إليهم ، وأن أيام السلم ، إن كانت حسوما نحسات عليهم ، فستكون أيام الحرب من نار جهنم . وأنهم يستطيعون أن يصنعوا كل شيء بالرماح — كما قال تاليران — إلا أن يستقروا فوق شباها .

---

(١) شوقى فى رثاء سعد زغلول

وتعلموا حيث يجب أن يتعلموا ، فى ميدان المعركة الذى بلغوه دون طعان حقيق بعد أن ردهم الجيش المصرى مقبوحين فى هزائم تترى غرب الدلتا : أن ميدان المعركة الأخيرة لهم قد أضحى هنا .

لكن القادمين اليه فى هذه المرة هم المصريون ، مستشهدين ، مقبلين من ديارهم ، لا الإنجليز مستعمرين ، مستسخرين ، من بعيد ... ولن يكون معهم الخديو نفسه فى قصر « رأس التين » . ولن يكون للخديو مندوب مع جيشهم الغازى فى صحراء القنال !! . . ولن تبق « خيالة سان جورج » أو الذهب الإنجليزى ، ظهيراً لهم فى أرض الوطن .

وتعلمت مصر : أن الحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات .



المسدس المصرى الذى لن يكف عن الانطلاق

لم تتعلمها كلاما ــ فقد أتخمت كلاما ــ ولكنها لمستها بيدها أعمالا، ورجالا ، من لحم ودم ، ورصاصاً يتكلم .

تعلمت مصر : أن التضحية فى سبيلها لاترتجى من جيل دون جيل ، أو طبقة دون طبقة . وأن على كل فرد من بنيها ، قسطه الحق من الوفاء لها والبذل فى سبيلها . وأنها إذا عزمت أمرها وأجمعت رأيها تفتحت لها الأبواب إلى الانتصار .

وتعلم من لم يكن يعلم : أن قد أنزل الذين بطروا من أهل اليسار من صياصيهم ، وهم جامون رواء ، إلى صفوف الشعب . وقيل لهم : « إن الذى له فى الوطن أكثر، عليه للوطن أكثر ، وإلا فإنها الهاوية » .

وتعلمت مصر : أن إنجلترا لا تهتز قدر ما تهتز للضربات المباشرة . ويوم يستيقن الإنجليز صدق جهادها سيخرون إلى الأذقان سجداً .

* * *

بلى ... ضرب أحمد عصمت نفسه مثلا خالداً . فسجل بالطهور من دمه دستور المبادىء التى اعتنقها وطالما دعا لها ، مبدءا مبدءا ؛ فيالها من مبادىء صادقة ، وياله من رجل صادق فى المحيا، صادق فى الممات .

والناس لن يصدقوا داعية بمقاله . وإنما يصدقون الذين يصنعون .

* * *

لم ينشب الإنجليز أن انقشعوا عن المكان ، وحملت عربة الإسعاف جثمان البطل وكأنها تحمل إلى مصر كلها أعلى قيمها المعنوية مجسدة فى رفاته الغالى .

وعادت سيارة نقل الركاب وما وراءها من سيارات إلى الزقازيق يروى راكبوها فى التحقيق ، وللشعب ، وللصحف، أحاديث البطولة التى سعدت حياتهم بها، وطير الراديو المصرى أنباءها ، فاهتزت بها وبأصدائها

أسلاك البرق وموجات الإذاعات فى الخافقين ، مثنى وثلاث ورباع وخماس ، أياما وليالى .

وعرف الفدائيون ممن كانوا فى ذلك المكان إذ شهدوا صورته فى حافظته التى خلفها ، أنه الطيار الذى مكث يختلف إليهم زمانا ، فتنادوا للفداء وتعاهدوا على الثأر .

قال البعض إن أحمد عصمت قد هاجته عبارات البريجادير إذ كان يصر على نبش سيارته ، وإن لسان البريجادير قد اشتد عليه وعلى وطنه.

بل قيل إن يده قد امتدت إلى وجهه ، فأبى البطل المصرى أن يفرض عليه الغاصب قانونه — ففرض عليه قانون الرجولة والشجاعة والوطنية المصرية ، ليجعل منه ومنها حديث الدنيا ... وقد فعل . كما يفعل البطل .

وقال آخرون إنه قد هاجه تفتيش الإنجليز للنساء ، وهن يغضضن من أبصارهن ، وهم يصنعون بهن ما تمنعهم الإنسانية الدنيا أن يصنعوه ، مثلما مثلوا بالموتى وما صنعوا بالأسرى .

وقيل إن القائمين على خطط الفدائيين كانوا يعلمون بوجود البريجادير فى ذلك المكان فأعدوا له ما استطاعوا من قوة ، كمثل ما أعدوا من قبل للبريجادير « إكسهام » فى منطقة الاسماعيلية ، وكلف أحمد عصمت تنفيذ الخطة ، فصنع فى أبى حماد ما عجز عنه غيره فى ظاهر الاسماعيلية .

ولعل فى خطابه ما يشير إلى أنه قد ذهب إلى هنالك وفقا لخطة موضوعة ، وضعها وحده أو مع غيره .

وقيل إنه كان فى طريقه الى التل الكبير ليوزع السلاح الذى كان يحمله ، ورجالا ستة كانوا فى سيارة نقل الركاب فى جلاليب بيض ، رجعوا بعد استشهاده الى الزقازيق . ولقد وفد على داره فى الغداة وفود من الفدائيين بالشرقية ، فروى بعضهم أخباره بتفصيل ، لكنهم

لم يعودوا إلى داره لتعاقب الأحداث التى تعاورت على الوطن بعد٢٦من يناير. كما أفاض فى ذكر أسفاره للتل الكبير وأبى حماد، زعماء الفدائيين الذين وكلوا بتشييع جثمانه فى المستشفى بالزقازيق.

ولو تمكن منه الإنجليز بعد تفتيش سيارته لغنموا ما فيها من السلاح ولأسروه، فما أحسنوا إساره، وهو قد قرأ فى صحف الصباح - ١٤ من يناير - أنهم أعدموا سبعة من أسرى معركة التل الكبير رميا بالرصاص.

سلم ركاب سيارة النقل حافظة نقوده للمحققين وفيها ثمانية جنيهات وستون قرشا بقيت لديه من عشرة الجنيهات التى تسلمها فى الصباح من المصرف.

وحمل الى المستشفى الأميرى فى الزقازيق. وكانت بطاح الشرقية جميعها ترثى الشهداء بتشييع الجنازات، وتلاوة القرآن فى السرادقات، وأبت الزقازيق إلا أن تحتفل به فى المستشفى الأميرى عندما وصل، وعندما فصل، بهتاف الفدائيين: «الله أكبر الله أكبر»، «والنصر لمصر». وبترديد ذكرياته، وأحاديث زياراته.

ومر جثمانه ببلبيس فكانت فى جوف الليل تؤبن شهداءها حتى بلغ القاهرة بعد منتصف الليل.

فلما كانت الغداة خرجت مصر، بل برزت مصر، فى تشييعه، تحرض على القتال، وكأن جثمانه ملفوفا فى أعلامها. قد أصبح وأضحى، علم قيادتها.



الكتاب السادس

ميلاد بطل



كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة
بأن أحداً منهم لم يتزحزح عن موقفه .

محمد نجيب

الباب الأول

البيعة العـــامة



مشت مصر فى اليوم التالى وراء فتاها ، ربع مليون يسعى فى ربع مليون ، من قلب القـاهرة إلى قلعة صلاح الدين ، يتهدد ويتوعد ، وينادى بتجميع السلاح لغد . ويضيف إلى تاريخ وفاة رجل، تاريخ ميلاد بطل .

كانت تودع شهداء الجامعة بالأمس الدابر ، فلما ثأر لهم فى طراز بطولته العالى ، مكان استشهادهم، خرجت مصر تحتفل بميلاد شيء جديد .

مشت مصر فى « يوم أحمد عصمت » على نطاق أوسع ، لأنها هبت تحيي من ثأر لها وللسابقين من شهدائها ، وكانت فى بطولته معان شتى أدركتها بغرائزها .

لم يكن رجل حرب فصار بطل حرب .

خرج وحده يطالب بدم الشهداء جميعاً فكان أباً للشهداء لا مجرد زميل لهم .

وكان زوجا ، وكان ابنا، وكان أبا لأبناء ، بعضهم حسبه ليشد وثاقه إلى الحياة الدنيا بأمراس كتان من المبخلة والمجبنة .

ولم يكن فريسة للغرور أو للفراغ أو للحاجة أو الاضطهاد ، فيقال طفح الكيل وفاض ، بل كان موظفاً ناجحاً ، وطياراً له فى آفاق مستقبله كما كان له فى ماضيه غزوات ، فكان له من عمله ما يشغله ويفوق نجاحه فيه الحساب . وكان من قومه فى الثروة والذروة . ذا جـــدةٍ وشباب تغريان بالرفاهة والنعماء .

وكان ، غير منتم لحزب أو جماعة ، حيث تستأثر مبادىء الجماعات بالغلاة من المؤمنين ، وتسوقهم إلى مصايرهم فى صميم خططها . ولم يك رجل اندفاع أو مغامرة ، أو زهرة فى كمها لم تتفتح بعد، حيث الشباب لا يهاب . بل كان نضو أسفار ، وحليف تجارب ، وحمال مسئوليات وأخا حساب ، وقوة أعصـــاب ، خرج فى سبيل الله ، لا مستبقيا لنفسه فرصة فى أن يعود ، فاستشهد كما يريد ، وحيث أراد ، فى غير نكرة أو إمعة ، بل فى قائد من كبار القواد .

ولما نهد إلى القتال نهد بسلاحه الذى يحمله ، أو سلاحه الذى جمعه ، ليجود به وبنفسه معه ، ويظفر لأمته بما لا يظفر به إلا الجيش اللجب : ألا وهو رأس جيش العدو .

وكانت مئات الآلاف تتخيله وتتصوره ، من بديع صوره ، وسمات القواد فى طلعته ومظهره ، لو كان على رأس جيش فى التل الكبير لكان حقيقاً أن يحمل لمصر ألوية النصر .

وكانت وصيته لأمته فى صحف الصباح حكمة بالغة ، إلى جوار صوره وإلى جوار عمله ، فكان آية .

والحق أنها فهمته من صحيح إخلاصها وصميم إخلاصه ، ففقهت جملة الأشياء دون عناء ، ككل عمل كبير يحدث الأثر الكبير منظوراً أو غير منظور . وما فهمت مصر إلا نفسها إذ عرفت ما يجب لها على أبنائها

وكيف ينهض به من صدق . فأقبلت تحتفى باليوم السعيد من أيام ميلاد روحها الجديد .

من أجل ذلك سالت الأمة فى جنبات العاصمة لا لتشيعه ، ولكن لتبايعه ، باللغة التى تبايع الشعوب بها . فكانت البيعة العظمى فوق أنها الجنازة الكبرى .

مادرت مصر بدفن صبحت أم على البعث أفاقت من كراها
وكأن الناس لما نسلوا شعب السيل طغت فى ملتقاها (١)

وأين أيام الجنائز الكبرى من يوم مشت فيه أكبر جنازة شهدها الأحياء فى عددها وفى ثورتها ؟ فكانت يوم نداء ، للمقبلين من الشهداء . يطلق فيها الرصاص من جنبات الصفوف للاستعداد والاستعداء .

لم يكن يوم بكاء ولا يوم دعاء ، بل كان يوم المعركة أو اليوم الذى يسبق المعركة . لتكون مصر أعز نصراً وأحضر جنداً .

لم يكن فيه من مظاهر الجنازة قدر ما فيه من طلائع الملحمة ـ لا نشيج ولا عويل ولا استعبار ، بل كزئير الأسد وصيحات الانتصار ، وأنفس ترنو إلى الصور المحمولة على الأعلام ، لفتى مقدام ، يطل على أمته من سماء المثل العالى يقول لها : « ها هى ذى هامة رأس جيش العدو. فعليك ما بقى . وأقبلى فى أثرى » .

وما هى إلا دعوة من سماء البطولة لنصر جديد فى أرض القنال . وفيها هوى مصر وعميق عقائدها ، حيث الجيوش الغازية تدنس الأرض المقدسة التى مشى عليها الرسل من « يوسف » و « موسى » و « عيسى » والمسلمون الأولون والعرب ، وتقطع الطريق على شعب يريد ليضع نفسه فى القرن العشرين بعد الميلاد، حيث كان بين الأمم فى القرن العشرين قبل الميلاد ، قبلتها وقدوتها .

* * *

---

(١) شوقى فى رثاء سعد زغلول

اجتمع الشعب لتكريم المثل الأعلى للفداء عند « القبة الفداوية » — لكأن بعض المصادفات والأسماء من عناية السماء — وضاقت عليه القاهرة بما رحبت فلم يبدأ تشييع الجنازة إلا بعد أن كان أول المشاة أبعد عن الجثمان بكيلومترات.

وتحركت الجنازة فى الضحى حتى إذا ارتفع النهار كانت تنحدر اليها من كل حى، بل من كل درب، جموع زاخرة كالنهر تنصب فيه فروعه وسواقيه. فلم تقطع الكيلومترات الباقية إلى ميدان الأوبرا إلا فى نهار كامل : تتقدمها عربات الجيش وعربات الإذاعة بمكبرات الصوت وعربات البوليس لتنظيم المرور وجنود الجيش متشابكى الأيدى على جانبى الطريق.

وتقدمت مصر الرسمية بالوزير مندوب رئيس الوزارة والوزير رئيس الكتائب، والوزراء والكبراء والمرشد العام للإخوان المسلمين، ومفتى فلسطين، ورجال القضاء والعلماء وأساتذة الجامعات ورجال الدين، ورجال الصحافة يحملون على الأعلام أسماء الصحف، ومندوب القيادة العامة للقوات المسلحة، والشيوخ والنواب، ورجال الأمم العربية وممثلى الهيئات السودانية ورجال الإدارة ورجال الجيش والبوليس على اختلاف وحداته.

وتتابع ممثلو الآفراق والجماعات فكانت مصر كلها حاضرة، فى فرق للفدائيين فى ريعان شبابها، وأخرى لم يسلخ رجالها العشرين ربيعا، إلى جوار صفوف جامعة القاهرة ومندوبى جامعة الاسكندرية وصفوف جامعة إبراهيم وشباب الأزهر، والعمال الحكوميين بالوزارات والمطبعة الأميرية والترسانة وعمال النقل وعمال الترام، والمدارس الثانوية مدرسة مدرسة والمدارس الابتدائية عشرات، ثم عامة الأمة من سائر المشيعين. وما هم إلا مصر فى براءة طهرها تعرض نفسها فى يوم له ما بعده . . . بل كان

ثم ايطاليون ويونانيون يهتفون مع الهاتفين ويرفعون أكفهم وقبضات أيديهم فى كبد السماء ، كأنما يتوعدون عدواً مغيراً من وراء السحاب ويقولون « مصر للمصريين ونحن من مصر » .

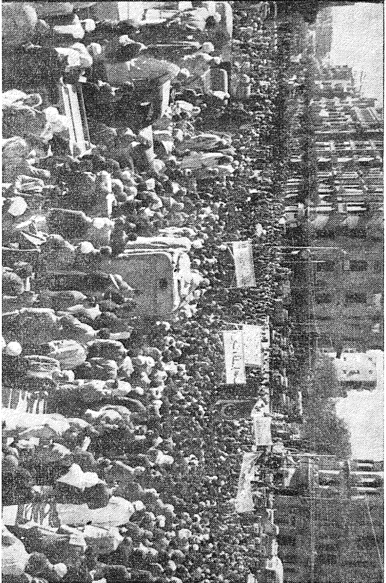
وسالت أنهار الصحف الكبرى والصحف الأخرى غداة الاستشهاد يوما بعد يوم ، صفحات بعد صفحات ، فياضة بالدراسات عن البطل الجديد فى حياته ونشأته ومعركته . فكانت الحديث المهم والمثل الملهم ، والموقعة الكبرى فى « حرب القنال » .

ووصفت الصحافة يوم ١٥ من يناير ، كما سجلت يوم ١٤ من يناير بما تقدر الأقلام عليه . وفى ذلك بعض ما تقول إحدى الصحف : « لم يكن أمس يوما واحداً من حياة مصر بل كان سنين طويلة عاشتها مصر ممتلئة الصدور بالكرامة مزدهية القلب بالعزة فخورة بأن ركب التاريخ يودع ابنها البار وشهيدها البطل أحمد عصمت إلى مقره الأخير بعد أن أثبت للدنيا بأسرها أن مصر تنجب الرجال ، أى الرجال ، وأن أبناء مصر يدفعون عنها ببذل الروح والنفس ، يدفعون عنها بالدم المراق والعمر ، أقل ما يخدش كرامتها حتى لو كان سباً وضيعا يستفرغه من طبعه الوضيع وقح من سفهاء الانجليز .

« ولم يمتلىء أمس بشعور واحد من قلب مصر بل لقد انصبت فيه مشاعر كثيرة وحارة كانت جميعها تلتقى عند تخليد البطولة ، عند تمجيد الحرية ، عند تقديس الفداء . لقد طرحت القاهرة أمس بكل من فيها . طرحت الأعمال عن كاهلها وتوقفت فيها كل معالم الحياة الصاخبة المنهمكة لتتسابق عند المكان الذى تقرر عنده أن تحمل مصر نعش الفقيد على الأعناق وكان البارحة كأنه يوم بعث ذهل الجميع فيه الا عن الشهيد ...

تزاحمى . . تزاحمى . . . .

أيتها الأنفس المشتعلة بالفخار . تزاحمى تزاحمى أيتها القلوب الخفاقة بالعزة . تزاحمى أيتها الأرواح المتطلعة للحرية .. تزاحمى تزاحمى أيتها الألوف المؤلفة من شعب مصر . وميدى يامصر واضطربى أفواجا أفواجا وأنت



إلى جنة الخلد ياعصمت

تتدافعين بالايدى وبالمناكب، وأنت تتسابقين بالآلاف المؤلفة إلى القبة الفداوية . إلى المكان التاريخي الذى شهد مصر تحمل عنده على الأعناق شهيدها الخالد أحمد عصمت إلى مقره الأخير » .

* * *

هى ذى مصر تعلم الغرب مرة أخرى أن النصر عمل من أعمال النفس. وأن الاستعمار يلفظ فيها آخر أنفاسه كما لفظت فيها الغزوات الصليبية آخر أنفاسها . وما الاستعمار فى حقيقة أمره إلا الحـــرب الصليبية قد استحالت حربا عصرية ، لامتصاص دم الشعوب الضعيفة .

ولم تعد مصر ضعيفة، بل أصبحت مدرسة جهاد تعلم المشرق والمغرب وبنى العروبة ، حيثما كانوا ، كيف يضحون فى سبيل أوطانهم.

إليك مثلا بعض فقرات، معربة، مما حوته افتتاحية إحدى الصحف الفرنسية بالجزائر(١).

مصر فى المعركة

« استشهد الطيار أحمد عصمت برصاص الإنجليز إذ رفض أن يفرض عليه الإنجليز قانون سيادتهم فالى ذكرى ذلك الطيار الشهيد الشاب ، والأب السعيد لأطفال ثلاثة ، الذى وهب روحه فى وقار وكرامة ، لأنه يعرف أنه إذا روى البذور بالدموع ستجنى أمته سنابل الحب فى سرور وجذل :

لنقلها مرة أخرى ولنكررها دائما : إن الوطنية هى روح الكفاح. ومصر التى أسمع منها الآن وقع قطرات الدمع تروى شعورها العام بهذه الروح ، تتردد فيها عبارات الوطن والشرف والتضحية كما تتردد

(١) الجمهورية الجزائرية للكاتب الجزائرى الكبير مصطفى بشير بتاريخ ١ / ٢ / ١٩٥٢

العبادات فى الصلوات الخمس ، وقد عزمت كرامتها أن تقيم الدليل الأبدى على عظمتها ، ببذل دمها . وبهذه الفكرة التى تعلو على كل اعتبار سياسى ثانوى ، هب بنوها إلى منطقة قنال السويس يواجهون جيوش المستعمرين التى جيشها هنالك تشرشل (لحماية التجارة الدولية) .

وهكذا تلقى مصر على العالم عامة والعرب خاصة درسا رائعا فى الكرامة ،وتقف وحدها لا تستمد العون إلا من قواها المعنوية وتبعث فتيانها إلى الموت راضية بتضحية مصالحها وتقدمها الحاضر فى سبيل الخلاص من مستعمر يتلمس الثغرات لخنقها وهدم استقلالها. وعلى هذا يرى الإنجليز ضربات البطولة التى يسددها الفدائيون إلى قلوبهم بعدم الحكمة والتبصر وبالجهل والتعصب ، دون أن يعترفوا بأنها تضحيات مادية هينة القدر فى سبيل القيم العليا، وليس أحكم ولا أجدى مما يصنع المصريون، فهم لا يختانون مصالحهم ولا يهدرونها بل تتملكهم أمور أعلى ، يسيرون إليها دون أن يلقوا بالهم إلى صغائر لن يكون لها قيمة إلا إذا قام الوطن على آساسه .

فليست التضحية خساراً كلها ولكنها عملية ، مقايضة ، تقايض فيها مصر عرضا ماديا بأعراض أعلا وأسمى ، وليس البطل تاجراً ولا سمساراً ولا رجل اقتصاد وسياسة ... لكنه يلقى فى الميزان بقيم عليا يضعها فى أساس استقلال بلاده .

ومصر إذ تمارس هذا الاتصال بشعلة البطولة المقدسة تجدد ينبوع حياتها ، وتسير فى منعطف جديد تشرق الشمس فيه . فى حين أن نجم الاستعمار الذى يستنجد له تشرشل معونة الأمريكان . . . ينكدر وينكدر . . .

فى ١٥ من يناير شيعت مصر باحتفال مهيب رفات «أحمد عصمت» إلى مقره الأخير ... وكانت بالأمس تشيع بنفس الطريقة، وبنفس الإجماع

بطلين آخرين هما الطالبان « عمر شاهين » و « أحمد منيسى » وهما فدائيان أسرهما البريطانيون وقتلوهما بعد عذاب واصب .

وسيبقى أحمد عصمت كالنجم بين أبطال الشباب بحياته المثالية التى ترمز الى البعث العربى ، وتستفتح السبيل فى نفس الوقت أمام مستقبل مصر ، فلقد كان يستطيع بماله الكثير أن يسلك مسالك النعمة والدعة وهو وحيد أهله وسلالة أصلين كبيرين من عائلات مصر ، لكنه آثر طريق الكرامة والفحولة فى أداء الواجب ، وكان يعمل فى طليعة نسور شركة مصر للطيران من أعوام رافعاً رايات مصر فى السماء ، وكان ذلك حسبه ليحول دون انخراطه فى صفوف الفدائيين ، لكنه كان بين ساعات فراغه ييمم شطر منطقة القنال لمساعدة ضحايا الاستعمار بأموال قال « إنه مدين بها لمصر »

وهى كلمة بطل ستجعل من جسده الذى يبلى معنى خالداً لا يعروه البلى أبداً .

وفيما هو فى طريقه للمرة الأخيرة إلى القنال لتنفيذ مشروعه المقدس أوقفت قوات العدو سيارته وطلب القائد تفتيشها .. وكان « أحمد عصمت » هادىء الطبع . لكن الإهانة كانت قاسية فأبى أن يخضع . وتعالت به كبرياء الأحرار على أن يسلم للأجنبى بقانون السيادة على أرض الوطن فأرداه قتيلا وجنديين كانا معه ؛ وأسلم روحه إلى بارئها .

لكنه قبل هذه التضحية القاسية لتبقى مصر فى شكتها ، حاملة سلاحها ، حتى تستتم حريتها » .

* * *

أوفد الملك السابق وكيل الخاصة الملكية إلى زوج البطل الشهيد يعلن لها « تقديره شجاعة الشهيد ويرجو لها ولأولاده أحسن العزاء . وقد أمر

أن يتعلم أبناؤه بهى الدين وأحمد وفاطمة على نفقته طول مدة دراستهم كما رأت الأميرة فريال أن تقدم هدية منها ، مصحفاً كريماً إلى بنته فاطمة »

وطلب صورة للفقيـــد لضمها فى المتحف الحربى إلى صور أبطال حروبنا .

كانت هذه التحية من الملك هى التحية الوحيدة التى تقدمت منه فى كل حوادث الاستشهاد فى حرب القنال .

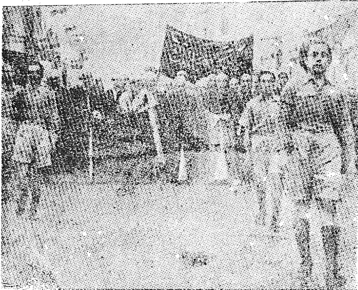
وما كانت التحية لأحمد عصمت أو لأطفاله أو لآله ، فإنما راغ الملك من حرب القنـال حرصاً على الملك . لـكنها البطولة العليا ، أو البيعة العظمى ، بجلجلتها المدوية ، تخيف الذين يخافون من الخوف نفسه ، فلا يختفون ولا يستخفون . ولا يملك المـكابر إلا أن يحنى هامته أمامهـا . وأول الذين يحنون هاماتهم أمامها هم العدو .

تظاهرت كثرة المدن مظاهرات صامتة أو صاخبة . وسمع المصلون فى خطب الجمعة ١٨ من يناير سنة ١٩٥٢ أئمة المساجد وشـــيوخ الوعظ يستنهضون الهمم من مثاله العالى ، وأطلقت البلدان على شـوارعها اسمه ؛ وسمت شركة طيران طيارة لها باسمه ، وسمى الآباء مواليدهم باسمه ، ومنهم من ذكره عندما ولد له فى باريس .

وأعلن شباب الجامعة إقامة تمثال للشهيد . وسمت بلدية القاهرة باسمه أكبر الشوارع فى منطقة عين شمس « شارع الشهيد أحمد عصمت »

وأذاع الراديو المصرى فى الثامنة من مساء ٢٤ من ينـــاير على موجات العالم تحت عنوان [اهم حوادث الأسـبوع] بلسان واحد من النواب الأحرار فى مجلس سنة ١٩٥٠ كان من أصدقائه الخلص .

« ظاهرة من ظواهر البطولة لم يسبق لمصر بها عهد . . ذلك أن فتى مصرياً من أكرم أرومة وأشرف خؤولة وعمومة ، هو البطل الشهيد



الجنازة الصامتة يتقدمها رجال الدين بطنطا فى ١٥ من يناير سنة ١٩٥٢

الطيار أحمد عصمت . ودع أهله وأطفاله الثلاثة وداعا أبوياً عاطفيا حاراً وكأنما كان يعلم فى قرارة نفسه أنه الوداع الأخير . وركب سيارته ميمما شطر المنطقة التى يستشهد فيها الأباة من بنى وطنه غير منتم إلى حزب سياسى ولا هيئة أو جماعة بل بوازع من قلبه الكبير النابض بالوطنية السامية، بدافع نقى من إيمانه الكامل بكرامة وطنه . فواجه المستعمر بمفرده وفى وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من مواطنيه الذين استوقفهم المستعمرون فى منطقة من نقط التفتيش . فانبرى لكبير القوم وقائدهم يرفع فى وجهه صوت مصر التى لا تصبر على الهوان . ولم تثنه المدافع المسددة والجند الحاشدة ، فلما نأى كبيرهم بجانبة واستكبر ، أقدم الطيار على الموت المحقق فروى أرض الكنانة من دم البريجادير ودماء حراسه واستشهد أحمد

لتوه بطلا الأبطال ، وسيداً للرجال ، ومعدناً للشجاعة وللمثل الشرود بين الأمثال .

وخرجت مصر ، كلها، تحتفل بميلاد البطل الشهيد ولا أقول بتشييع جثمانه الطاهر ، فإن الأبطال لا يموتون . وإنما هم يولدون من جديد ! ذكراهم ماثلة للعيان ومثواهم فى كل قلب وأسماؤهم مفخرة كل لسان » .

بلى .. أصبح أحمد عصمت معلما من معالم أمتنـــا . وهرما من أهرام تاريخنا . يضاف إلى القيم العليا التى تقوم بها مصر قبل أن تقوم بكنوز ثراها ، بما تخلعه على الأمة من صفات تعلى مستواها ، فوق ما تعليه القيم المادية ، كمثل ما ترتفع القيمة الذاتية للمعادن عندما يضاف إليها وصف الذهب . وزادت قيمنا العليا قدر ما خسرت من قيمتها إنجلترا . « وثم دائماً قوتان تصطرعان — كما يقـــول عبقرى القوة نابليون نفسه ـ هما السيف والروح ، لكن الغلبة دائماً للروح مع امتداد الزمن »



الباب الثانى

المذبحـــة والحريق



استطرد أشبال القنال للقتال وارتفعت فضائل الوطنية المصرية إلى ذروتها . فاتجهت كلها إلى تلك البقعة المرموقة بآمال مصر حيث يسيل الطهور من دمها ، واحتدم الجهاد وتعالى الاستشهاد .

وكانت أفاعيل العدو فى منطقة التل الكبير فى الأسابيع الماضية تنبىء عن معركة كبيرة يحشدون الآلاف لها ، فلما لطمتهم مصر لطمتها فى ١٤ من يناير ، جن لهم جنون ، فلم تعد الحرب عندهم حرباً ، بل استحالت مذبحة ، تبرر الغاية فيها كل وسيلة لها .

فى ١٥ من يناير سلطوا المدفعية الثقيلة على مدينـــة التل الكبير وحاولوا اقتحام حمادة التل الكبير ، فردهم الفدائيون وجنود البوليس مدحورين .

فانقضت القوات البريطانية فى الغداة على بلدة التل الكبير وأسرت ١٥٠ من الجنود ومعهم قائدهم وهو لواء بالبوليس ، ونشبت بينهم وبين الفدائيين مواقع اشتركت فيها الطائرات للمرة الأولى فى منطقة التل الكبير تقاوم رجالا فى القرى ! وفى غداتئذ قطعت أوصال محافظات القنال ، فمنعت المواصلات الحديدية فيما بينها ، وأعلنت إنجلترا أنها تحارب فى القنال صونا لسمعتها . .

أما أنها الحرب فهنيئاً لها الحرب العظمى مع الفدائيين !
وأما سمعتها فهل تراها بقيت لها سمعتها ؟

وفى الغداة أقبل طراد بريطانى من أسطول البحر الأبيض المتوسط على ميناء بور سعيد !

وما يريدون إلا تكرار حادث ضرب الإسكندرية منذ سبعين عاما، وتحريض الجاليات الأجنبية للانتقاض على وطنها الثانى ، مثلما انتقضت من سبعين عاما !

وفى ٢٠ من يناير احتلت جنود المظلات جزءاً من مدينة الاسماعيلية ، واستولت على مقر البوليس والمبانى العامة وطردت الأهلين من منازلهم، ونقض الجنرال « أرسكين » عهده باعتبار مدن القنال مدناً مفتوحة . . !

وفى اليوم التالى نشبت معركة بين القوات البريطانية تظللها الطائرات، وبين الأهلين غير المسلحين فى الاسماعيلية ، واعتدى الإنجليز على مسجد الاسماعيلية ، واقتحموا دار المحكمة والنيابة ، وعبثوا بملفات القضايا .

هكذا لم يبق إثم لم يبوءوا به ، فلم يتورعوا عن الاعتداء على دور العبادة وعلى معابد العدالة !

وأذيع إخفاق « تشرشل » فى رحلته إلى أمريكا يوم وقف فى « الكونجرس » الأمريكى يستضحك نوابه بأنه لا يستجدى أموالا لبريطانيا ، ولكنه يستعدى جنوداً أمريكية للدفاع عن القنال !

ولكن ضد من ؟ ضد جماعة الفدائيين من شباب الجامعات المصرية ! وضد مصر التى تطالب بحريتها !

وفى الغداة فقدوا إربهم ،فأعدموا ثلاثة من الوطنيين رمياً بالرصاص فى أثناء حملة تفتيشية فى مقابر الإسماعيلية ! وفى اليوم التالى أخذوا فى تشريد أهالى المدينة وعزل أحيائها ، وحشروهم زمراً مستكرهة

لتصويرهم ، والمدافع وراء ظهورهم ، ليقول الإنجليز إن المصريين فى القناة هادئون هانئون .

وفى نفس اليوم أعلن وزير الداخلية المصرية أن وحشية مجازر الإنجليز بالقناة قد فاقت مجازرهم فى « دنشواى » .

وفى الغداة ٢٤ من يناير نسف الفدائيون مخازن الذخيرة ومستودعات البنزين فى معسكر « أبى سلطان » واستمرت الانفجارات والحرائق أربع عشرة ساعة ، فعلا صياح المذيعين من محطات « لندن » . واحتل الإنجليز فى مصر بلدة « جنيفة » بالدبابات وأسروا رجال البوليس فيها .

وفى نفس اليوم نشرت الصحف أن بريطانيا تشترط لمفاوضة مصر قبل الجلاء أن يكف الفدائيون عن مهاجمتها فى القنال .

فإذا كان الجمعة ٢٥ من يناير وقعت الواقعة التى كانوا لها يمهدون . . فأنذر الجيش البريطانى المحافظ المصرى وقوات البوليس المصرى فى الاسماعيلية بالتسليم لجيش العدو فرفض المحافظ الإنذار ، ففتحت أبواب جهنم على دار الحكومة المصرية وجنود البوليس ومقر بلوكات النظام وضباطهم ... وانقض الإنجليز يذبحون البوليس ! الذى لا يحمل إلا عصى البوليس أو بنادقه وحلله وشاراته ! ويهدمون محافظة الإسماعيلية هدما بالدبابات وفرق المظلات ! وصاح الجنرال البريطانى بهم ليستسلموا . فكان جواب مصر على لسان ضابط يسيل منه الدم « لن تتسلموا حجراً واحداً إلا فوق أشلائنا » .

استشهد ٤٦ ضابطاً وجندياً من جنود البوليس ، وجرح ٨٦ فى طراز من البطولة مقطوع القرين ، وأسر الإنجليز نحو ١٠٠٠ من البوليس المصرى

وأعلنت الصحف أن « لندن » وافقت مقدما على هذه الخطة من ذبح رجال البوليس ! وهدم دار الحكومة ! وأنه قد أبحرت إحدى عشرة سفينة حربية كبيرة من مالطة إلى المياه المصرية ، ونقل لواء « العاصفة » الإنجليزى من قبرص إلى منطقة القنال .

وما أرسلت فرق « العاصفة » ولا السفن الحربية الكبيرة إلا لحدث ضخم سيحدث ، بعد إذ أخفقت فى استدراج الجيش المصرى ، وأفلحت فى أسرقوات البوليس المصرى وقتلها وتشتيتها على مبعدة من حيث يجب أن تكون .

ولئن هنئت مصر برجالها ، إن إنجلترا خليقة بأن تهنىء نفسها بالجيش البريطانى ، الذى عرف كيف يذبح رجال البوليس المدنى ، وهو بحلله السود كالراهب فى مسوحه السود . كلاهما يحمى حرية الأشخاص وحرية الأنفس ، وكلاهما يقاوم الجريمة ، وكلاهما جدير بالحماية والاحترام ، فى أبجديات الحضارة ، وقواعد الحرب ذاتها .

عرف البوليس المصرى كيف يرفع اسم مصر فى الخافقين . فكان كمثل حرس نابليون « يموت ولا يستسلم » . بل كما قال عنهم « الرئيس محمد نجيب » بعد عام أمام النصب التذكارى الذى أقيم لهم شكراً ، وذكرا :
« كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة بأن أحداً منهم لم يتزحزح عن موقفه »

* * *

كان طبيعياً وإنسانيا أن تتظاهر قوات بلوكات النظام فى الغداة ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، لتزحف إلى القنال فتشاطر قرناءها مصايرهم فى الدفاع والاستشهاد ، بل أن تنهض مصر عن بكرة أبيها غضبا لهم . وأن يتظاهر طلبة الجامعات محتجين على البربرية التى ذبح بها البوليس المصرى ، وكان الملك قد دعا الى قصره ، ضباط الجيش والبوليس ليطعموا على مائدته غداءهم ، فى ذلك اليوم احتفالا بميلاد ولى عهد ولد له .

ولم يكد يعتدل ميزان النهار حتى اشتعلت الحرائق فى بعض ملاهى القاهرة ومشاربها ومتاجرها الأجنبية والمصرية على سواء ، وكان البوليس الباقى فى القاهرة أعجز من أن يقاومها بعد أن تفرقت قواه فى بلاد القنال ،

وعجزت سلطات الأمن فى وزارة الداخلية عن أن ترأب الصدوع، إلا أن تنزل قوى الجيش إلى شوارع العاصمة، وشجر الخلاف — والمدعوون يأكلون — بين الحكومة والملك فلم يقبل نزول الجيش إلا بعد أن قبلت شروط الملك آخر النهار.

فأعلنت الأحكام العرفية، فى بساطة، بناء على طلب الملك! وفى مصر كلها، لا فى العاصمة وحدها!

ووقع ما لم يكن فى حساب الحكومة ولكنه كان فى حساب سواها! أن الإنجليز والملك، معاً، قد استفادوا من الحوادث جميعاً! فتسلم الملك الحكم! وسيق الأحرار إلى المعتقلات، وأعفيت الوزارة فى الغداة، وأسكت صوت مصر فى قصر «شايو» بباريس حيث كان وزير الخارجية ينزل الصفعات، كأنها الصعقات، على الإمبراطورية البريطانية.

وبخع الحكم الشعبى نفسه دون أن يدرى ما دهاه!

وأصلحت الخيانة الداخلية بال وزارة الخارجية البريطانية.

ووليت الحكم وزارة لم تحم ظهور الفدائيين، فلم يستطيعوا أن يحاربوا العدو الخارجى من الأمام، والعدو الداخلى قد برز لهم من الوراء.

وتلاحقت الوزارات، مثنى وثلاث ورباع وخماس! ست وزارات فى ستة أشهر!

وخفى النور ولم تخب النار.

كان أسوأ الناس ظناً بالإنجليز يخالهم يستدرجون البوليس المصرى كله للقتال ليأسروه أو ليقتلوه، فيجردوا البلاد من شرطتها، ثم تدور المذابح، ويقع التدخل، ويعاد تمثيل رواية صيف سنة ١٨٨٢ فى الإسكندرية بالجيوش والأساطيل.

لكن الذى وقع فى ذلك اليوم أمكن الإنجليز من أغراضهم جميعاً، فى

براءة عذرية إنجليزية! على حين كربت مصر لما ألم بها وألقيت عليها تبعات الحريق دون تمحيص. وبعد أن كانت مذبحة البوليس قد أهاجت مشاعر العـــالم من أجل مصر ، عشية ، فغر العالم فاه مشدوها فى الغداة ، مما حدث فى مصر ، وأنساه الحريق حينا عوار الاستعمار .

ولـكن السؤال سيبقى قائما : ما الحقيقة فى مؤامرة حرق القاهرة ؟

وإلى أن يجد هذا السؤال جواباً مسلما سيبقى مهدداً، سلام حواضرنا وعواصمنا ومعاهد القاهرة ، التى آلت الى الحضارة المعاصرة ، تحايا من القرون الغابرة ، ليس لها نظائر . ولن يغمض جفن لحكومة يقظى حتى تضع اليد على مظان هذه القارعة التى جدلت بها مصر فى معركتها المظفرة.

وإلى أن يتم التحقيق فى أسباب الحريق، سيكفينا قدر مسلم، من غير حاجة لتحقيق، هو أن الحرب التى شنها الإنجليز على أسباب الأمن عندنا، واستدراج بوليسنا الى القناة ، وذبحه ، وأسره، وإبقاء القاهرة بلاجند، قد مكنت للهياج أن يتفاقم، وللفتنة أن تعم، وللنار أن تشتعل وتستفحل، أى للوافعة أن تقع ، والانقلاب أن يتم .

أجل: ستدير إنجلترا وجهها للمستقبل، وفيه بعض آثار ذلك الحريق، وعليها كسف من المسئولية عن أسبابه .

وإذا كانت كسبت معركة فإنها لم تـكسب الحرب .

* * *

سبحانك رب ، ولك الحجة البالغة ، إن مصر كنانة الله ، من أرادها بسوء قصمه الله . فلئن كانت حرائق ٢٦ من يناير خيانة كبرى إنها كشفت للشعب خصومه مرة أخرى .

فلم يك معدى عن مواجهة الخصم الداخلى والخصم الخارجى فى وقت معاً. وكان على الأسلحة المصرية الفتية أن تنهض برسالتها بسواعد الأبطال.

من أمثال « أحمد عصمت » . وفى ظلمات اليأس دقت نواقيس الزمن ، وقامت ثورة الجيش (٢٣ — ٢٦ يوليو) لتخلع الملك ، وتدير وجهها الى الميدان الخارجى، بعد ان حمت ظهرها فى الميدان الداخلى .

وطلع الفجر الجديد .

وأصبحت مصر لنا ... فاستطاعت أن تصنع الكثير الكبير فى بضعة أشهر . وستصنع على اسم الله ما هو أكثر وأكبر . وما الانتصار الا إرادة أن ننتصر .

أصبحت مصر للمصريين . فصنعت فى بعض عام ما لم تقدر عليه من قديم الزمان . لم يعد تاجها حلية لرجل . ولا أرضها الكثيرة وقفا على طائفة . وانفتحت أمامنا الطريق لنبلغ حيث نكون فى الوطن كما كنا فى الدين « خير أمة أخرجت للناس »

فما هذه الثورة الثالثة فى « نهضة منتصف القرن » ، بيضاء من غير سوء أو إهراق دم ، إلا آية أخرى على أن نهضتنا لن تتأخر أو تتقهقر . وأنها دورة من دورات الزمن ، بالغة شأوها بإرادة الله ، لا معقب لأمره . ولا معوق لقدره . حقيق علينا أن نحمل فيها أعباءنا ـ أيا كانت وأينما كنا ـ فى حقول الحضارة أو ميادين التضحية .

وستبقى ثورتنا الثانية فى القنال ورقتنا الرابحة فى مجامع الأمم المتحدة، والصوت المسموع فى منتداها .

فلن يكون لك صوت إلا أن تكون قوياً .

ولن يكون سلام مع استعمار .

وستطلع ، كما ستتطلع الأجيال المقبلة ، إلى آيات البطولة التى سطرها فى ألواح تاريخنا أساد القنال . نرى فى أنوارها وجه الوطن الغالى ، فلا تعترضنا عقبة إلا اقتحمناها ، فبذلنا كل شىء ، من أجل مصر .

الكتاب السابع

من جيل إلى جيل



نستطيع أن ننتصر اذا أردنا أن ننتصر

ماريشال فوش

الكتاب السابع

من جيل إلى جيل



وبعد ، فصر اليوم فى مفترق الطرق .

وما « أحمد عصمت » ولداته فى نهضة منتصف القرن إلا طلائع مصر الحديثة . فلنتـــابع الطلائع ، بالسير فى هدى النجوم . ولنخشع أمام الذكرى ، لنتعلم من الماضى حساب المستقبل . ولن يعرف أحد حساباً إلا إذا سأل نفسه :

ماذا قدمت لبلادى ؟

وماذا على أن أقدم لبلادى ؟

أما السؤال الأول ، فجوابه عندنا ، نحن الذين كنا فى « نهضـة فاتحة القرن » حيث أنتم ، أيها الشباب ، فى نهضة « منتصف القرن » تتساءلون السؤال الثانى

إننا ـ مع الأسف ـ قدمنا قليلا فى حين كان المطلوب منا كثيراً ... لكننا كنا طلائع النظام الجديد الذى أرست قواعده الحياة النيابية وجاوزت أبصارنا الهدف ، من مناورات المستعمر . فلم تفطن كثرتنا إلى أن البرلمان وسيلة لا غاية ، وتلاحق الصرعى ، والجرحى ، فى صفوفنا ، فلم

تنصرم سنوات حتى رضى بعضنا أن يكونوا مع الخوالف . وقعد البعض لنا كل مرصد. وقلبوا لنا الأمور، وباعونا بالمال. وخدعونا بالسلطان. واسترهبونا بالفقر والجهل والمرض .

« وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »

كان من وراء ذلك العراك الخفي حيناً ، البارقة رماحه أحيانا ، عينان للعدو الخارجي والعدو الداخلي ، ترعيان عوامل الدمار المسلطة علينا وتغذيانها دائما بالوقود . فنخرت عظام النظام ، من عمل أعوان العدو ؛ وصارت القصور قصور الورق ، تبتدىء خطوطها وتنتهى خيوطها حيث جيش الاحتلال

وبهذا تسنم فتيان من طليعتنا كراسى السلطان ، وعرف بعضهم لذاذات الثراء ، فأبعدوا منا ما استطاعوا مسحورين .

كنا أشتاتا نحارب قوما جميعا ، وكنا أفراداً فى أخلاط من العشيرة ملصقين بنا، وليسوا من أنفسنا، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وكلما تراءى قبس من النور فى ظلمات اليأس ، انبرى له الشيطان بألف معول وألف لسان . حتى كان من أمرنا ما كان .

لكننا استطعنا فى السنوات الثلاث الأخيرة أن نضيف لحساب جيلنا الثورة الدستورية فى سنة ١٩٥٠ وخطوات الشهداء على أرض القنال ، فى سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، وثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ ، وخلع الملك ، وإلغاء الملكية ، وإعلان الجمهورية ، وتحديد الملكية ... وأننا قطعنا رأس الإقطاع وذنبه مثلما جعلنا ـ من قبل ـ التعليم ، كالماء والهواء ، حقاً لكل فرد حى ، ونهضنا بالتعليم الجامعى ، ومصرنا الجهاز الحكومى، وصنعت وحداتنا المحاربة المعجزات فى حــــرب فلسطين . وطبقنا الديمقراطية كما قدرنا ، وحللنا عقدة الحجاب والسفور ، وخطونا فى الاشتراكية خطوات .

ولئن كانت الحياة النيابية بحاجة إلى كثير إصلاح ، أو كان التعليم الجامعي يؤرق الجفون. أو كانت الأداة الحكومية قد اتهمت بالإفلاس. مذ قصرت عن توجيه الشعب ، وتنمية إنتاجه ، وإشعاره بقدرته وكرامته ، ففصلت الحكومة عن الأمة . إنها لأعراض كالأمراض ، تصيب الكائن الحى ككل مرض فى الحياة .

إننا لم نكن نستحق غير هذا ، ولكل أمة الحكومة التى تستحقها . وكيفما تكونوا يول عليكم .

ستحملون أيها الشبان تبعاتنا فيما تحملون من تبعات ، فلا تعذلونا على ما أضعنا من ثمرات ، ولا تكلفونا ما لا طاقة لنا به ، ولا تحملوا علينا إصراً يجب أن يشركنا فيه من قبلنا . واعفوا عنا واغفروا لنا .

* * *

أما السؤال الثانى :

ماذا تريد منى بلادى ؟ فعندكم جوابه ـ أيها الشباب ـ فاليوم أمسكم وغداً يومكم .

ستعرفون الجواب أكثرمما نعرف وستجيبونه اليوم وغداًوباستمرار، فليس المطلوب آراءاً وإنما المطلوب عمل... والعمل عمل الأحياء .

سيباركُكم الراحلون منا ويقتفى الباقون آثاركم ، فرحين بنصر الله ، جذلين بخلود مصر فيكم ، وفيمن يليكم .

إن كان لنا أن نقول لكم كلمة ختام فى هذا المقام، فهى كلمة واحدة : « ثقوا بوطنكم ، واعملوا له » .

مصر لم تخذل آباءكم مرة واحدة فى آلاف السنين ، وستنصركم كما نصرتهم .

لا قمبيز ولا الإسكندر، ولا قيصر ولا عمرو ، ولا هولاكو

ولا تيمورلنك ، ولا نابليون . قدروا أن يقهروا مصر ... فردت على حدودها من ردته ، وغلبت فى داخلها من غلبته . فإما لفظته وإما مصرته ، فصار منا ... وذات يوم أسلم خليفة نابليون على رأس جيشه فى القاهرة .

تتألق الأمم وتخبو . وشعلة مصر لا تخبو أبداً . فإذا خف بريقها زمانا خف ، لا ليتخلف ، ولكن ليمتزج بالشعلة العالمية فيزيدها توهجاً . فكانت أقدم الأمم وأدوم الأمم ، وكان لها فضلها على اليونان والرومان ، والعرب والأتراك ، وأوربا المعاصرة ، وأذاعت رسالات العالم الحديث والعالم القديم شرقا وغربا .

ولقد تبطىء خطاها قرنا أو بعض قرون ، لأن عمرها طويل ، وعبئها كبير . لا تبدأ تتلألأ ثم تزول ، كـكل الدول ، بل تمشى على مهل ، لتبقى إلى الأبد . همزة وصل بين طرفى الزمان ، وبرزخا بين جناحى كرة الأرض ، تصنع المدنيات صنعا أو تستقبلها وتصدرها .

حتى إذا رانت ظلمات القرون الوسطى فى وجه الأرض كانت لها شرائعها الرائعة ، وأكبر جامعة ، وفنون الزراعة والتجارة والصناعة ، والجحافل الجرارة ، والمجتمع المتحضر ، تنحدر خلاصاتها من سحيق القرون إلى أفهام فلاحها العبقرى ، بالمواريث الأربعة التى لم يجتمع لغيره نظائرها . من أرض مصر التى تزخر بالخير ، إلى فنون الزراعة البارعة التى لم يبلها القدم ، إلى فطانة الأصل العريق تتلاقى عنده حضارة المجتمع وتجاريب الزمن ، والتواصل مع الأمم ، إلى شريعته السمحة المطبقة يوما بعد يوم ، فى شتى شئون الحياة ، وفى كل صلاة ، فى العمل وفى العلم وفى المعاملات والعبادات ، فكانت أستاذه اليومى . فغدا نابها وإن كان لا يقرأ ، ذا قوة وإن لم يتوشح بسلاحه . وبوأ أمته مكانها الأعلى من

أربعين قرنا ، ولم يسقط من يدها مصباح التقدم فى أى قرن ، وما زالت الأمم تخطب ودها وتفيد من وجودها .

وسيجرى روح مصر الأصيل على صفحات الوجود ، ما جرى محورها المستقيم فى نهرها الطويل ، مجملا وجنات وادينا . فاذا بلغ مجمع البحرين ، انطلق ماؤه السلسبيل كالسهم ، لم يتغير لونه ولا طعمه ولا طميه أميالا ... فاذا أبعد من الشاطىء المصرى ، أكثر وأكثر ، غلب الملح الأجاج على العذب الفرات ، وذهب لونه وطعمه وطميه أباديد ! كمثل ما تغلبنا عوادى الزمان كلما باعدنا بيننا وبين مصر ، فانقطعت صلتنا ، أى ضعفت ثقتنا ، بوطننا .

ثقوا - أيها الشجعان - ببلادكم ونهركم ، واستمسكوا بهذه السلسلة الطويلة من الموج المتواصل الحلقات ، بين حقول الحضارة وخط استواء العالم ، وبين أعماق التاريخ السحيق وحاضر أيامه ، كالمسبحة الطويلة فى يد أمنا الكبرى ، ترتل على أمواجها واحدة إثر أخرى ، آيات الشكر لله الذى خصها بثقته فأضاء مشعل الحضارة فى ضفتى النهر ، من راحتى مصر ، فحق علينا أن نثق بها كما وثقت قدرة الله .

* * *

اعملوا - أيها الشجعان - شكراً لله ، واتجهوا بأسباب أمتكم نحو القوة ، فى البر والبحر والسماء ... فى العقيدة ، وفى الأخلاق وفى التعليم ، وفى بناء العقول والأجسام ، وفى تكوين الحجارة المتينة التى نقيم عليها صرح أسرتنا الكبرى ، وهى الوطن ، وأسرتنا الأخرى ، من أنفسنا وأبنائنا ، وسائر الأشخاص والأشياء ، والاعمال والآراء .

إن كان لنا أن نقول لكم قولا عما تتطلع إليه مصر من محاربة المرض والجهل والفقر بالإصلاح الصحى ، والتعليم العام ، ورفع

المستوى الخفيض لتسعين فى المائة من بنى الوطن ، وحل مشاكل الأسرة والتطور الاقتصادى والاستقلال المالى والصناعى والزراعى ، وإضافة أصوات الآلات وجلجلتها على جانبى النهر إلى خرير مائه المتدفق ، وبناء الأسطول البحرى والأسطول الجوى ، وإقامة أسوار من الأرواح المصرية على تخوم البلاد ومشارفها ، وحل مسائل القناة ، والجلاء ، والسودان ، ومنابع النيل ، والجار الجديد فى فلسطين .

إن كان لنا أن نشير إلى ذلك كله فاعلموا أن الاستعمار ، أى الاحتلال ، هو عدونا الداخلى وعدونا الخارجى . اعلموا أنه لن تحميكم المعاهدات التى لا تكونون طرفا فيها ، ولا التى تكونون فيها طرفا . إن بلادنا لا يحميها إلا سواعد بنيها وكفايات كل امرىء يستحق الحياة فيها .

إن علينا ضريبة الدم ، وضريبة الهواء المصرى النقى الذى يملأ الصدور حياة ، قبل أن تستحق علينا ضرائب المال . . . بل قبل أن تستحق لنا حقوق ، فلا حق على الوطن إلا بواجب .

هلا أدركتم ذلك بغرائزكم أيها الشجعان ؟ إنكم إن صغت قلوبكم إليه أعددتم له ما استطعتم من قوة ، وعقدتم الخناصر على الانتصار ، ولا نصر لأمة إلا بإرادة الانتصار أو كما قال « فوش » ، « لبوانكاريه » و « كليمنصو » ، وهم فى انتظار « لويد جورج » ليرسموا الخطط الأخيرة التى أظفرتهم فى الحرب العالمية الأولى : [سيتحدثون إلينا عن خطط المعارك — إنى درست الخطط فى المدرسة الحربية ، والشىء الوحيد الذى يحقق النصر هو إرادة الانتصار ، ونستطيع أن ننتصر إذا أردنا أن ننتصر] .

اعلموا أن الامر أولا وأخيراً عمل من أعمال النفس ، فهل أحسستم بالقوى الكامنة فى كل نفس وكل حس ! .

هل أحسستم الصوت الداخلى يناديكم : إن هذا النهر العظيم وهذا الثرى الخصيب ، وهذه السهول المونقة المشرقة على جنبات الوادى ، وهــذه الوجوه السمراء التى لوحتها الشمس . وهذه العظام المغيبة لآبائنا فى الثرى ، والآلام والآمال ، والمعانى الخافية أو البادية فى كل ما يحيط بنا ، قد تمثلت فى كلمة واحدة هى مصر ، تريد أن تنهض من جديد ليومكم الموعود ! فى مكانها الجدير بكم فى الأمم .

إن رخاءنا المادى والفكرى يتراءى كالثمار الدانية فى انتظار قطافها، وفى انتظاركم دنيا أجمل من دنيانا . والشمس التى جعل لها أجدادكم ذلك المكان فى عقيدتهم فعبدوا ضياء الله فيها ، تهيب بكم أن تحتلوا مكانكم تحتها ، لأنكم بنوها .

إن كنتم أحسستم ذلك ـ أيها الشجعان ـ كما أحسسناه فى ثورة سنة ١٩١٩ ، فاحتفوا بإحساساتكم أيما احتفاء ، لأنها أداة الحياة . ولا تنوا عن تعهدها ساعة من الزمان .

لا تفرطوا فى واحدة من الصغائر ، فإن الوطنية عقد ينفرط إذا سقطت حبة واحدة من حباته . ويبقى ناقصاً وإن تجمعت بواقيه .

والوطنية لا توجد إلا كاملة وذات هدف ، وما عداها عيش رتيب هو الحياة من يوم ليوم ، لا طعم لها تكاد تسيغه ، ولا غاية لها تبغيها ، وإذا ظهرت بعض آثارها فى دنيا الفرد انعدمت فى حياة الأمة ، وما أقصر عمر الفرد إلى جوار عمر الأمة . فى حين تخلد ذاته أو تطول حياته إذا كان له أثر فى حياة بلاده .

لنعمل على أن نكون أبناء أمتنا ـ أيها الشجعان ـ بالإنتاج لزيادة قيمة الفرد وقوة الوطن ، وبالعلم وبالخلق وإنكار الذات . ولا شىء إلا بالإنتاج والعلم والخلق وإنكار الذات .

لنعمل جميعاً وشتى فى وقت واحد . فإن البحر يتجمع من السواقى والروافد . والوقوف فى انتظار التجمع كف عن التجمع وامتناع عن الجريان . ليعمل كل منكم ما يستطيع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ليس المطلوب منكم مما يقوم به جيل واحد ولكنه قد يتم فى بضع سنين إذا حالف التوفيق أعلامكم .

لا تهولنكم ضخامة الجهود فهى مطلوبة من سكان الوادى كافة . ومن هذا الجيل خاصة . فان سقط دونها فهى فى رقاب الأجيال اللاحقة فليعمل كل منكم فى دائرته إن لم يستطع أن يعدوها ، فليس ذلك أضعف العمل ولا أضعف الإيمان .

اعملوا بصوت خفيض وبصوت عال .

والعمل هو نفس الإصلاح . والتقدم يجىء من فوره فى آثاره .

لم يستغل ، بعد ، كل شىء فى شطرى الوادى ، لا الماء ولا الصحراء ولا التربة آتت كل ثمارها ، ولا نصف ثمارها ، ما دامت محرومة من الآلات . ولا التاريخ المصرى أو الطبيعة المصرية أو ملكات الرجال ... كل أولئك الكنوز الزاخرة ختمت على مفاتحها الأثرة ، والشك ، والتنابذ ، وضعف « روح الفريق » أو العمل مع الجماعة ، وعدم الاعتماد على الذات والتعويل على الأجنبى .

* * *

أيها الشبان . . . أيها الشجعان .

لقد علمنا التاريخ سر نجاح الأمم منذ فجر الحضارة :

جاء رجل أجنبى يقرع أبواب «صولون» وهو يقول : إنى أريد صداقتك فأجابه : « أولى بك أن يكون لك أصدقاء فى وطنك لا فى الخارج »

وذات يوم رجع المرشح الإسبارطى جذلان فرحا إذا أخفق فى انتخابات الثلثمائة ، لأن فى « إسبارطة » ثلثمائة خيراً منه .

ولما سأل الفرس الوفد الإسبارطى هل يمثلون رئيسهم أو جمهوريتهم قالوا : « نحن نمثل رئيسنا إذ أخفقنا ، ونمثل جمهوريتنا إذا وفقنا »

ولما أتم « ليكرج » رسالته فى سن الشرائع « لإسبارطة » رأى أن يميت نفسه جوعاً « لأن موت السياسى أجدى على وطنه من حياة كحياة العاطلين » .

وقيل لأم الشهيد « أحمد عصمت » بعد المعركة إن فتاها كان أشجع الشجعان فقالت : « لقد كان ولدى شجاعاً . لكن فى مصر من هو أشجع منه »

أيها الشبان . . . أيها الشجعان

ياشباب الأيام التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد : إننا نسلمكم مصر خيراً مما تسلمناها . فسلموها أبناءكم خيراً مما تسلمتموها . وأضيفوا إلى صفحات هذا السفر المنشور على وجه البسيطة صفحة مشرقة

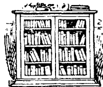
أيها الشبان . . . أيها الشجعان

إلى مزيد من القوة ، مزيد من الوطنية ، مزيد من التضحية ، مزيد من الديمقراطية ، مزيد من الإنتاج

اعملوا . اعملوا دائما . فسيرى الله عملكم . وسيراه بنوكم . وسنراه فى العالم الآخر .

المطبعة التجارية الحديثة
٣ شارع الشيخ ... بالسكاكينى - مصر

فهرست



الثمن ١٥ ص